بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن الكريم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله تبيانا لكل شىء يهم الناس فى أمر دينهم ودنياهم، طورا على سبيل الإجمال والإشارة، وطورا على سبيل التفصيل والتصريح، على وفق حكمته تعالى، وما قدّر له من الإعجاز فى أسلوبه وعلومه ومعارفه، وهى لا تنفد على مر الأيام، ولا تنتهى على كرّ العصور.

وبعد:

فهذا بيان جديد مما يحويه القرآن الكريم، ويلهمه الله تعالى لمن يقرأ فيه بتدبر، ولمن يتلوه بتأمل، ليستخرج منه عجائب تبيانه، ويستنبط منه وجوه إعجازه، وهو يكشف حكما قرآنيا جديدا فى موضوع سياسىّ له شأنه فى عصرنا، وإنه ليهم الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم أن يعرفوا من القرآن هذا الحكم، لأنه يتعلق بأخطر موضوع سياسى يشغل أفكارهم، ويثير اهتمامهم، وهو الحكم الاستعمارى الذى أخذوا يتنبهون لخطره فى أيامنا، ويشعرون بمفاسده فى المجتمع الإنسانى.

فقد سبقهم القرآن الكريم إلى التنبيه على هذه المفاسد للحكم الاستعمارى، وإلى بيان سوء أثره فى الأمم التى ابتليت به، ولا شك أن سَبْقه إلى هذا فى عصر كانت أمم الحضارة تتطاحن فيه على هذا الحكم، كما تتطاحن عليه أمم الحضارة فى عصرنا، مما يدل على عظمة

رسالة القرآن فى الدين والسياسة ، وعلى أنه لم يكن لمثل محمد عليه السلام فى أميته وأمية شعبه أن يصل إلى هذا الرشد السياسى فى عصر ضلت فيه أمم الحضارة ، ولم تزل فى ضلالها بعده إلى أن تفاقت مفاسد هذا الحكم ، وتفاقت أخطار الحروب التى يثيرها بين الشعوب ، فأخذت طوائف من كبار الفلاسفة وغيرهم ينددون بهذه المفاسد ، ويسعون فى تخليص العالم من هذا الحكم ، ليسود السلام بين الشعوب ، إذ ينقطع طمع الشعوب القوية فى حكم الشعوب الضعيفة ، وينقطع بانقطاعه ما يثيره بينهم من التحاسد والتباغض ، ليقوم بينهم عهد محبة وسلام وتعاون على خير المجتمع الإنسانى ، ويكون رائد القوى أن ينهض بالضعيف لا أن يزيده ضعفا على ضعفه ؛ ليستأثر وحده بخيراته . وهذا هو الذى دعانى إلى تأليف هذا الكتاب : « القرآن والحكم الاستعمارى » لأضيف به للقرآن الكريم فضلا جديدا على الإنسانية عامة ، وأقيم به معجزة جديدة بين معجزاته العديدة ، ومن الله أسأل التوفيق والهداية إلى أقوم طريق .

ماهو الحكم الاستعماري

التعريف بالحكم الاستعمارى

لابدّ من التعريف بالحكم الاستعمارى قبل بيان ما جاء فى القرآن الكريم بشأنه ؛ لأن هذا يساعد على أن نفهم ما جاء فى القرآن الكريم بشأنه فهما صحيحا ، وعلى أن نعرف أن حكمه عليه جاء حكما عادلا ، وهذا هو مايقضى به الترتيب المنطقى ؛ لأن الحكم على الشىء كما يقولون فرعٌ عن تصوره ، فلابد أن نتصور الشىء أولا ، ثم نأخذ فى الحكم عليه ثانيا .

والحكم الاستعمارى اصطلاح سياسى حديث ؛ لأنه لم يكن يعرف قديما بهذا الاسم ؛ ولعل القدماء لم يكونوا يفرقون بينه وبين غيره من أنواع الحكم ، لأن الشعوب كلها كانت تتطاحن على الحكم مطلقا ، ولا تفرق فى هذا التطاحن بين حكم وحكم ، وإنما هو حكم واحد فى الشعوب جميعا ، كل شعب يسعى فى الوصول إليه ، ويريد الاستئثار به دون غيره ، ويرى أن هذا الحكم حق له بما يراه من وجوه الحق . ومن يرى هذا فى الحكم لا يعرف فيه فرقا ، ولا يتبين فى أمره اختلافا ، لأنه لا يعرف فى الناس حكما إلا حكمه ، ولا يرى لغيره حقًّا فى هذا الحكم.

إلى أن شاع فى عصرنا هذا الاصطلاح الجديد « الحكم الاستعمارى » فصار الحكم ينقسم إلى قسمين : « حكم استعمارى ، وحكم وطنى » .

ويراد بالحكم الاستعمارى حكم شعب فى شعب آخر حكما استغلاليًّا ، يقصد منه الاستئثار بخيراته ، وإشباع شهوة الحكم فى نفوس الشعوب

موقف الإسلام من الحكم الاستعماري والحكم الوطني والفرق بينهما

المتطاحنة فيه ، وإرادة التفرّد بالشهرة والعظمة والمجد فى هذه الحياة الدنيا ، وهو بهذا لا يقصد إلى خير الشعوب التى تُبتلَى به ، وإنما يقصد إلى إضعافها وإفقارها وإفسادها ، ليستديم له الحكم فيها .

الحكم الوطني

والحكم الوطنى هو حكم شعب فى نفسه ، بأن يحكمه واحد أو أكثر من أفراده على أىّ وجه من وجوه الحكم ، وهو بخلاف الحكم الاستعمارى السابق ، لأنه قد يكون حكما شوريّا صالحا يقصد منه خير الشعب ، لا شهوة الحكم ، وقد يكون حكما استبداديا فاسدا مثل الحكم الاستعمارى ، فيقصد منه شهوة الحكم مثله ، ولا يكون بينهما فرق إلا فى الاسم فقط ، وهو فرق لفظى لا يهمّ كثيرا ، ولا يرفع من شأن الحكم الوطنى الاستبدادى على الحكم الأجنبى الاستعمارى .

وقد جاء الإسلام والعالمُ يتنازعه حكمان استعماريان : حكم الفُرْس وحكم الروم ، وكانا يثيران من الحروب الاستعمارية المدمّرة ما يثيران ، وكان العرب يساقون إلى الاشتراك فى هذه الحروب . يسوق الفُرْس بعضهم بجانبهم ، ويسوق الروم بجانبهم بعضا آخر منهم ، مع أنهم لم يكن لهم فى هذه الحروب ناقة ولا جمل .

ولم يرض الإسلام للعرب هذا الوضع من الحكمين ، بل وقف بالمسلمين موقف الحياد منهما ، لأنه لا يقرّ هذه الحروب الاستعمارية ، ولا يقر ما تقصد إليه من الحكم الاستعمارى . فكان موقفه منهما أكرمَ موقف ، وكان له دلالته فى إيثاره للسلم على الحرب .

القرآن والحكم الاستعماري

في قصة سليمان وملكة سبأ

كان لسليمان عليه السلام مُلك بفلسطين على بنى إسرائيل ، وقد ورثه عن أبيه داود عليه السلام ، فكانا فى ملكهما على بنى إسرائيل يجمعان بين النبوة والملك ، ويسيران فيه سيرة عادلة صالحة تليق بمقام الأنبياء عليهم السلام . وقد بلغ ملك سليمان عليه السلام مالم يبلغه ملك فى بنى إسرائيل قبله أو بعده . وكان قد دعا الله تعالى أن يهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فوهبه الله له ، وجعله نهاية لعظمة ملك بنى إسرائيل ، إذ تفرّق أمرهم بعده ، وأخذوا فى الانحطاط والتأخر ، إلى أن سلط الله عليهم شعوب الاستعمار فقضوا على ملكهم ، ولم تقم لهم بعده قائمة ؛ لكفرهم بنعمته ، وخروجهم على شريعته ، وإيثارهم حبّ الدنيا والحرص عليها ، وبلوغهم فى ذلك حدًّا كرّه فيهم شعوب العالم ، وجعلهم لا يثقون فى ذمتهم وأماناتهم .

وكانت ملكة سَبَأ ملكة على اليمن فى عهد سليمان عليه السلام ، وكان لسبأ ملك عظيم فى اليمن نوّه الله تعالى بشأنه فى الآيات ١٥ — ١٩ من سورة سبأ : (لقدْ كانَ لسبأ فى مسكنِهمْ آيةٌ جنتانِ عَنْ يمينٍ وشمالٍ كلُوا مِنْ رزقِ ربكمْ واشكرُوا لهُ ، بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفورٌ . فأعرضُوا ، فأرسلنَا عليهمْ سيلَ العَرِمِ وبدلناهمْ بجنتيهمْ جنتينِ ذواتَىْ أكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشىءٍ منْ سدرٍ قليلٍ) الآيات .

وقد أراد الله تعالى هداية تلك الملكة إلى الإيمان على يد سليمان عليه السلام ، ولكنها حين أرسل إليها فى ذلك ظنت به السوء أولا . وحكى الله تعالى على لسانها فى قصته معها ما سبق به القرآن الكريم إلى ما أدركه الناس الآن من الحكم على ذلك الاستعمار الآثم ، فقال تعالى فى الآية ٣٤ من سورة النمل على لسان ملكة سبأ فيما كان بينها وبين سليمان بن داود عليهما السلام : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون) فالمراد الملوك الاستعماريون الذين يطمعون فى توسيع ممالكهم بضم بلاد أخرى إليها من غير جنسها ، ويعملون على الاستيلاء عليها بالقوة ، لتدخل فى حكمهم كرها لا طوعا ، ويكون أهلها لهم عبيدا ، وقد حكم القرآن الكريم على لسان تلك الملكة بأن أولئك الملوك الاستعماريين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، ثم قال (وكذلك يفعلون) أى كما قالت هى يفعلون ، فيكون من قوله تعالى تصديقا لها . وقيل إنه من قولها أيضا ، وهو تأكيد لما قالت قبله ، وهى تقصد بذلك تحذيرهم من سليمان عليه السلام ، وإخبارهم بأنه إذا دخل بلادهم أهان أشرافها وكبراءها ليستقيم له الأمر فيهم .

والمهم بعد هذا أن نعرف أمر سليمان عليه السلام فيما كان بينه وبين ملكة سبأ ، فهل كان أمره مثل أمر الملوك الاستعماريين ؟ ... يقصد الاستيلاء على ملكها ؛ ليهين أشرافها وكبراءها حتى يستقيم له أمرهم ، ويستأثر بأموالهم وخيرات بلادهم ، أو كان له غاية أخرى تليق بمثله من الأنبياء ؛ لأنهم لا يصح لهم أن يكونوا مثل أولئك الملوك

فى قصد الاستيلاء على البلاد للاستئثار بأموالها وخيراتها دون أهلها ؛ بل يجب أن يكونوا ملوكا مرشدين ، لا ملوكا استعماريين. فإذا أردنا معرفة هذا وجب أن ندرس قصة سليمان عليه السلام مع هذه الملكة من أولها إلى آخرها :

لنعرف أولاً كيف ابتدأ أمره معها؟ .

ولنعرف ثانيا كيف وصل معها إلى نهايته ؟ ...

وبهذا نتبين حقيقة مقصده منها ومن قومها . وهل كان له منهم مقصد دينى يليق بمثله من الأنبياء ، أو كان له مقصد سياسى مثل أولئك الملوك الطامعين فى توسيع الملك ؟ .

إن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ تبتدئ حين تفقد سليمان الطير فلم يجد الهدهد بينها ، فسأل عنه وتوعده إلا أن يخبره بسبب صحيح لتغيبه ، كما قال تعالى فى الآيتين ٢٠ ، ٢١ من سورة النمل :

(وتفقد الطيرَ فقالَ ما لىَ لا أرَى الهدهدَ أمْ كانَ منَ الغائبينَ ؟ لأعذبنَّهُ عذاباً شديداً أوْ لأذبحنَّهُ أوْ ليأتينّى بسلطانٍ مبين).

ولم يلبث الهدهد أن حضر بعد قليل من سؤال سليمان عليه السلام عنه . فسأله سليمان عليه السلام : ما الذى أبطأك عنى ؟ ... فقال الهدهد ما أخبر الله تعالى عنه بقوله فى الآيات ٢٢ — ٢٦ من سورة النمل : (فمكثَ غيرَ بعيدٍ ، فقال أحطتُ بما لمْ تحطْ بهِ ، وجئتكَ منْ سبأ بنبأ يقين . إنّى وجدتُ امرأةً تملكهمْ ، وأوتيتْ منْ كلّ شىءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ . وجدتُها وقومَها يسجدونَ للشمسِ منْ دونِ اللهِ ، وزيّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالهمْ فصدّهمْ عن السبيلِ فهمْ لا يهتدونَ .

ألاّ يسجدُوا لله الّذي يخـرجُ الخبْءَ في السماواتِ والأرضِ ويعلمُ ماتخفونَ وماتعلنونَ. اللهُ لاإلهَ إلاّ هوَ ربُّ العَرشِ العظيم) ...

وهذه الملكة هي فيما قيل ، بلقيس بنت شراحيل، من ملوك سبأ ، وكانت عاصمتهم مدينة مأرِبَ وقد طمعت في الملك بعد موت أبيها وطلبت من قومها أن يبايعوها ، فأطاعها قوم منهم ، وأبى آخرون وملّكوا عليهم رجلا يقال إنه ابن أخي الملك ، وكان خبيثا سيّء السيرة في أهل مملكته ، وقد أرادوا خلعه فلم يقدروا عليه ، فلما رأت بلقيس ذلك أرادت أن تأخذه بالحيلة ، فعرضت نفسها عليه ليتزوّجها ، فأجابها إلى ما أرادت من الزواج ، فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ، ثم قتلته وحزّت رأسه وانصرفت إلى منزلها ، وأراحت بهـذا قومها منه ، فاختاروها ملكة عليهم .

فلما أخبر الهدهد سليمان عليه السلام بذلك أجابه بما جاء في الآية ٢٧ من سورة النمل : (قالَ سننظرُ أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبينَ) ثم كتب كتابا إلى تلك الملكة .

« من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سـبأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، أمّا بعد ، ألاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » .

ثم ختم الكتاب بخاتمه ، وأمر الهدهد أن يذهب به إليها ، كما قال تعالى في الآيه ٢٨ من سورة النمل: (اذهب بكتابي هذا فألقِهْ إليهم ثمّ تولّ عنهم فانظرْ ماذا يرجعونَ).

فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه إلى بلقيس ، فلما قرأته جمعت أهل

مشورتها من أقيال مملكتها ، فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم أخبرتهم بما جاء فى الآيات ٢٩ — ٣١ من سورة النمل : (قالت يأيها الملأ إنى ألقىَ إلىّ كتاب كريم. إنه من سليمانَ ، وإنه بسم اللهِ الرحمن الرحيم. ألاّ تعلو علىّ وأتونى مسلمينَ) .

← وبهذا الكتاب يبتدىء أمر سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ ، وهو كما قالت بلقيس كتاب كريم يليق بمثل سليمان من رسل الله عليهم السلام ؛ لأنه لم يسلك فيه مسلك الملوك الاستعماريين الطامعين فى بلاد غيرهم للاستئثار بخيراتها دونهم ، فلم يجىء بأسلوبهم من التهديد والوعيد ، والتباهى بالقوة والسلطان ، ليخوّفوا البلاد التى يطمعون فيها ، ويجعلوها تخضع إليهم فى مسكنة ومذلة ، وإنما طلب منهم ألاّ يعلوا عليه ، بأن يردوا على كتابه ، فإن ترك الإجابة من التكبر والعلو ، وشتّان بين أولئك الملوك الذين يطلبون التكبر والعلو على غيرهم وبين سليمان الذى لا يطلب منهم إلا ترك العلو عليه لأن العلو من شأن الله وحده ؛ وإنما كان أولئك الملوك يطلبون العلو على غيرهم لأنهم كانوا يدّعون الألوهية وأن غيرهم عبيدهم ثم طلب منهم أن يأتوه مسلمين : أى طائعين مؤمنين بالله تعالى ، لما سبق من أن الذى دعا إلى هذا الكتاب هو عبادتهم للشمس من دونه تعالى. ولما سيأتى أيضاً فى هذه القصة ، مما يوضح مقصد سليمان من أولئك القوم ، وأنه لم يكن يبغى فى ذلك توسيع مملكة مثل أولئك الملوك الاستعماريين ، وإنما هى دعوة إلى دين الله تعالى ، وإنما هو غرض دينى لا سياسى ، يقصد إليه سليمان فى سلم لا حرب ، لأن السلم هو طريق الإيمان بالله تعالى .

ولكن أولئك الملأ الذين دعتهم بلقيس لاستشارتهم لم يفهموا قصد سليمان من السلم ، فأخبروها حين أخبرتهم بذلك وطلبت رأيهم فيه ؛ بأنهم أولو قوة فى الجسم على القتال ، وأولو بأس شديد عند الحرب كما قال تعالى فى الآيتين ٣٢ ، ٣٣ من سورة النمل : (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعةً أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم به ، مما يدل على أنهم لم يفهموا كتاب سليمان على حقيقته .

فأجابتهم بلقيس عن تعريضهم بالقتال . وأخبرتهم بما يئول إليه أمره من الشر ، وهذا مما حكاه الله تعالى عنها فى الآية ٣٤ من سورة النمل : (إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً ، وكذلكَ يفعلونَ) تعنى أنهم إذا دخلوها عنوة أفسدوها بالحرب (١) واستعبدوا أهلها بعد انتصارهم عليهم .

فآثرت بلقيس السلم بذلك على الحرب ، ثم أرادت أن تختبر أمر سليمان عليه السلام ، فأحضرت له هدية ترسلها إليه لتصانعه بها على ملكها ، وتختبره أملك هو أم نبى ؟ فإن كان ملكا قبل الهدية وترك لها ملكها ، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ، ولم يرضه منها إلا أن تتبعه فى دينه ، وذلك قولها فى الآية ٣٥ من سورة النمل : (وإنى مرسلة إليهمْ بهديةٍ فناظرةٌ بمَ يرجع المرسلونَ) .

وقد أرسلت الهدية إلى سليمان مع رسل من قومها على رأسهمُ المنذر

---

١ — قيد العنوة لبيان الواقع ؛ لأنهم فى الحقيقة لا يدخلونها إلا كذلك .

ابن عمرو ، وكانت هدية عظيمة نوّه المفسرون بها ، وذكروا ما ذكروا فى وصفها .

فسار المنذر بن عمرو بالهدية من اليمن إلى فلسطين ، فلما جاء سليمان ردها عليه ، كما قال تعالى فى الآية ٣٥ من سورة النمل : (فلما جاء سليمانَ قالَ : أتمدُّونن بمالٍ فما آتانىَ اللهُ خيرٌ مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحونَ) يعنى ما آتاه الله من الدين والنبوّة والحكمة ، وأنه لا يفرح بما آتاهم من الدنيا كما يفرحون ، لأنهم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا ، فيفرحون بإهداء بعضهم لبعض ، وأما هو فلا يفرح بالدنيا من حاجته عندهم ، وإنما حاجته الدين الذى يدعوهم إليه .

ثم أراد سليمان عليه السلام أن يظهر للمنذر بن عمرو ما عنده من القوة لئلا يطمعوا فى حربه بعد ردّ هديتهم إليهم ، وأمره أن يرجع إليهم فيخبرهم بها ، كما قال تعالى فى الآية ٣٧ من سورة النمل : (ارجعْ إليهمْ فلنأتينهمْ بجنودٍ لا قِبَلَ لهمْ بها ولنخرجنّهمْ منها أذلةً وهمْ صاغرونَ) يعنى إن أرادوا حربه ، لأنه لم يكن قاصدا لحربهم ...

فلما رجع المنذر إليها بلغها ما قال سليمان عليه السلام ، فقالت : والله لقد عرفت ... ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة . ثم كتبت إليه : «إنى قادمة عليك بملوك قومى ، حتى أنظر ما أمرك ؟ ... وما الذى تدعو إليه من دينك ؟ ... »

ثم سارت إلى سليمان فرأت من عظيم ما أعطاه الله تعالى ما رأت وشاهدت من الآيات الإلهية ما شاهدت ، فتركت دينها إلى دينه ،

وآمنت بالله تعالى وسجدت له وحده لا للشمس كما كانت تسجد ، واعترفت بما كان من ظلمها لنفسها بما كان من شركها ، كما قال تعالى على لسانها فى الآية ٤٤ من سورة النمل : (قالتْ ربِّ إنِّى ظلمتُ نفسى وأسلمتُ معَ سليمانَ لِلهِ ربِّ العالمينَ) .

وقد اختلفوا فى أمر بلقيس بعد إسلامها ، فقيل : انتهى أمرها إلى قولها أسلمت لله رب العالمين ، ولا علم لأحد وراء ذلك ، لأنه لم يذكر فى الكتاب ولا فى خبر صحيح . ولكن الظاهر أن سليمان اكتفى بإسلامها ، وترك لها ملكها كما كان قبل أن تسلم ، لأنه لم يكن له طمع فى ملكها ، وإنما كان يريد هدايتها وإسلامها .

وقيل : إن سليمان تزوجها بعد إسلامها ، ثم أقرها على ملكها باليمن ، وكان يذهب إليها فى كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام .

وقيل : إنها لما أسلمت قال لها سليمان : اختارى رجلا من قومك حتى أزوِّجك إياه . فقالت : ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى من قومى الملك والسلطان ! قال : نعم ، إنه لا يكون فى الإسلام إلا ذلك ، ولا ينبغى لك أن تحرِّمى ما أحل الله . قالت : فإن كان ولا بد، فزوجنى ذا تبع ملك همدان . فزوجها إياه ، وذهب بها إلى اليمن ، ثم جعل سليمان ذا تبَّع ملكا على اليمن كله .

وهذا كله يثبت أن سليمان لم يكن يطمع فى ملكها ، وإنما كان يريد إنقاذها وقومها من الشرك بالله تعالى ، فلما أسلمت أبقاها على ملكها كما كانت ، ولو كان يطمع فيه لما أبقاها عليه بعد إسلامها .

القرآن والحكم الاستعمارى

فى بلاد العـــرب

قد يقبل المفسّرون أن يجىء فى القرآن الكريم نصوص صريحة عما كان من الحرب التى انتصر فيها الفرس على الروم ، ليظهر ميله فيها إلى جانب الروم على الفرس ، ويعد بنصرهم عليهم فى بضع سنين ليفرح المؤمنون بهذا النصر ، إما لأنهم أهل كتاب مثلهم ، وإما لأن من مصلحة الإسلام ألا يصلَ الفرس إلى نصر حاسم على الروم ، وألا يصلَ الروم إلى نصر حاسم على الفرس ، حتى لا تطغى إحدى الدولتين على الأخرى وتصل إلى قوة يخشى أمرها على الإسلام إذا اشتبكت معه فى حرب ، بل تبقى الدولتان فى حروب غير حاسمة تضعفهما معا ، وتهيىء للإسلام التغلب عليهما إذا اشتبكا معه فى حرب ، ولو اشتبكا معه فى وقت واحد ، لأن التغلب على ضعيفين أسهل من التغلب على واحد قوىّ ! ...

وقد كان كلٌّ من الدولتين يجرى على سياسة ترمى إلى التغلب على الشعوب الضعيفة ، لا لتنهض بها من ضعفها ، ولكن لتزيدها ضعفا على ضعف ، لتتمكن من إفنائها ، وتستأثر بخيرات بلادها وحدها ، وهذه هى السياسة الحديثة التى تجرى عليها الدول المتنافسة الآن فى الغرب والشرق ، وتجرّ إلى حروب لا نهاية لها مادامت تثيرها المطامع السياسية التى لا تقف عند حد ، كما كانت تجرى بين الفرس والروم فى ذلك

الوقت ، ولافرق إلا أن الحروب صارت أشد فتكا بالأمم ، وقد اخترعت فيها آلات حربية يخشى أن تؤدى إلى فناء العالم ، ولا شيء يمنع من هذه النتيجة إلا الكف عن هذه المطامع السياسية الآثمة فى الشعوب الضعيفة ، والإيثار إرادة النهوض بهذه الشعوب الضعيفة وقصد هدايتها على إرادة المطامع فيها وقصد إفنائها ، وهو ما أراده الإسلام حين ظهوره بين هذه الحروب الآثمة فى عصره ، وهو ما أرادته الديانات السماوية الصحيحة قبله ، وهو ما أعلنه أول خليفة فى المسلمين سياسة صريحة بين الأقوياء والضعفاء ، وهذا فى أول خطبة له حين اختاره المسلمون خليفة عليهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم كلمته المشهورة :

« القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له » .

وهذا الذى قاله خليفتنا العادل فيما بين الأفراد يجب أن يجرى مثله بين الأمم ، حتى لا تعتدى الأمم القوية على الأمم الضعيفة ، وحتى يكون لهذه الأمم حقها فى العيش بجانب الأمم القوية ، ويكون لها حقها على الأمم القوية أن تأخذ بيدها فى سبيل النهوض ، وتعينها حتى تصل إلى ما وصلت إليه من القوة ؛ ولا يكون هناك إلا التعايش السلمى بين جميع الأمم ، بحيث لا يفرق بينها فى ذلك دين ، ولا يفرق بينها فيه جنس ، بل تعيش الأمم جميعا فى ظل « جامعة أمم » تنظر إلى العالم كأنه أمة واحدة ، ولا يكون فيها تعصبات جنسية ، ولا تمييز للأمم القوية على الأمم الضعيفة . بل يكون للأمم الضعيفة فيها جميع ما تمتاز به الأمم القوية ، ليمكنها

أن تنجح فى تأدية رسالتها الإنسانية السامية . ولا تفشل فيها كما فشلت عصبة الأمم التى تألفت عقب الحرب العالمية الأولى ، وكما تسير الآن فى طريق الفشل هيئة الأمم المتحدة ، لأن التعصبات الجنسية تسودها كما كانت تسود عصبة الأمم ، ولأن الأمم القوية أصواتها فيها أقوى من أصوات الأمم الضعيفة على نحو ما كان فى عصبة الأمم أيضا .

والإسلام لا يمنع من الانضمام إلى جامعة أمم عادلة ، بحيث لايكون فيها أثر للتعصبات الجنسية ، ولا للتمييز بين الأمم القوية والضعيفة ، لأن الغرض منها يجب أن يكون هو القضاء على مطامع الأمم القوية فى هذه الأمم ، ولا يمكن تحقيق هذا الغرض فى جامعة أمم يكون للأمم القوية فيها أدنى امتياز على الأمم الضعيفة ، وكيف يمنع الإسلام من انضمامنا إلى جامعة أمم تعمل لهذا الغرض ، وهو الذى سبق إلى الدعوة إليه ، وكان أول من نهى الأمم القوية عن الاعتداء على الأمم الضعيفة وجعل الحق للعهود العادلة بين الأمم لا للقوة الغاشمة ، وهذا فى قوله تعالى فى الآيتين ٩١ - ٩٣ من سورة النحل :(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) .

وكذلك دعا إلى التعايش السلمى وأمر به فى قوله تعالى فى الآيتين ٦٠ ، ٦١ من سورة الأنفال : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك

فإنّ حسبك الله، هوَ الذى أيّدك بنصرهِ وبالمؤمنينَ) وهذا هو التعايش السلمى بيننا وبين من يجنح إليه من الأمم التى تخالفنا فى الدين

وأعود فأقول :

قد يقبل المفسّرون بعد هذا كله أن يهتمّ القرآن بضعف طارىء بدا على الروم ، وبحكم استعمارى استولى على بعض بلادهم ، ومنها بلاد كانت تئنّ من حكمهم ، ولا يهتمّ بحكم استعمارى تغلغل فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام ، ولم يبق لهم منها إلا نجداً والحجاز . وهى الصحراء القاحلة فى بلاد العرب ، على أن الأطماع الاستعمارية كانت قد أخذت تمتدّ إليهما أيضاً . مع أن بلاد العرب أولى باهتمام القرآن من بلاد الروم لأن الإسلام كان يعتمد عليهم فى بدء أمره . ويرى أنهم جنده الأوّلون فى أول ظهوره .

ولكنى لا أقبل أن يغفل القرآن ذلك مع أنه لم يغفل أمر الروم حينما وقعت بعض بلادهم فى قبضة حكم استعمارى ، وهو الذى اهتمّ بأمر العرب كل اهتمام ، وذكر ما كانوا فيه من تفرق وانقسام ، ومن تشاحن وتباغض وخصام ؛ وأنه هو الذى ألّف بينهم ، وجمع بين قلوبهم على كلمة الإسلام ، فقال تعالى فى الآية — ١٠٣ — من سورة آل عمران : (واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذ كنتمْ أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرةٍ منَ النار فأنقذكمْ منها كذلكَ يبين الله لكمْ آياته لعلكمْ تهتدون) ثم يذكر ما كانوا فيه من عنت بسبب ذلك التفرق والانقسام ، وأنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم

رؤوفا رحيما بهم ، ليزيل ما وقعوا فيه من ذلك العنت ، فيقول تعالى فى الآية ١٢٨ من سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم) ولا عنت يؤدى إليه التفرق إلا الضعف والوقوع فى قبضة الحكم الاستعمارى .

ولكن هذا يستنتج من هذه الآية استنتاجا ، ونحن نريدها صيحة صريحة من القرآن الكريم فى جنبات بلاد العرب ، تنبههم إلى خطر الحكم الاستعمارى عليهم ، وتوقظهم من غفلتهم عن ذلك الحكم الذى استناموا له ، ولم يعملوا على التخلص منه ، وتبين أنه لا سبيل لهم إلى هذا إلا بالإسلام الذى يوحد كلمتهم ، ليكونوا به يداً واحدة على التخلص من ذلك الحكم الاستعمارى الذى فرق بينهم ، بل أوقعهم فى حروبه التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

لقد استولت الحبشة على اليمن قبل الإسلام ، وهو أخصب قطر فى بلاد العرب ، وكانت فيه دولة عربية صميمة كان العرب يعتزون بها جميعا ، وهى الدولة الحميرية المشهورة ، فقضت الحبشة عليها ، ومكثت تحكم اليمن نحو سبعين سنة ، امتدت فيها أطماعها إلى غير اليمن من بلاد العرب ، فأرادت أن تستولى على الحجاز أيضا ، لتستولى على مكة عاصمة العرب الدينية ، وتهدم الكعبة التى تهوى إليها قلوب العرب جميعا ، فتجمع بينهم فى أشهر حجها على تفرقهم ، وتشعرهم بأنهم أمة واحدة على ما يقوم من الحروب بينهم .

فأرسلت إلى مكة الحملة المعروفة بحملة أصحاب الفيل ، فلما وصلت

إلى مكة هرب منها أهلها ، وتركوها لرحمة الله ببلد آمن ، لا يقصد ذلك الأجنبي بأهله خيرا ، وإنما هي شهوة التحكم في الأمم الضعيفة تستولي على نفسه ، ليزيد هذه الأمم ضعفا على ضعف ، ويشبع أطماعه وشهواته من خيراتها ويحرم أهلها منها ، فلا يكون لها منها إلا فتات الموائد ، وإلا لقيمات من العيش لا تسمن ولا تغني من جوع ، وهذا لا يرضى الله تعالى ، ولو كان ذلك الأجنبي القوي يدين بالنصرانية من الأديان التي لها كتاب منزل من السماء ، ولو كان أهل مكة من المشركين الذين يعبدون الأصنام ، لأن العدل بين الناس في الدنيا يجب أن يشملهم جميعا ، ويجب أن يعيش في ظله المشرك ، كما يعيش في ظله الموحد ، لأنه لا إكراه في الدين ، ولا شيء كالعدل يحبب المشرك في الإيمان ، ولا شيء كالظلم يزيده تمسكا بعبادة الأصنام ، وهذا إلى أنه يوشك أن يظهر بين أهل مكة رسول يعيد للأديان السماوية هيبتها ، بعد أن أفسدها تحكم تلك السياسة الوضعية الآثمة فيها ، وجعلتها تمشي في ركابها لقرض الظلم والبغي على الأمم الضعيفة ، فيخضع هذا الرسول المكي الكريم السياسة للدين ، ولا يخضع الدين للسياسة ، لأنها صارت إلى أهواء وشهوات أفسدت العالم ، وأوقعته في حروب تهلك البشر ، وتبيد الحرث ، وتنشر راية الخصام ، وتطوي راية السلام ؛ كما قال تعالى في الآية — ٤١ — من سورة الروم : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) .

وحكمة الله تأبى أن تمكن للحبشة في بلد توشك أن تخرج هذا الرسول الكريم ؛ لتعوق رسالته إذا لم توافق أطماعها ، وتبطش بقوتها

فيمن يدعو إليها ؛ كما بطشت الأمم القوية قبلها برسلها فأهلكهم الله تعالى بظلمهم وبغيهم . وقد أراد الله تعالى أن يجعل هذه الرسالة الجديدة رسالة رحمة لا عذاب ؛ لتكون خاتمة الرسالات السماوية . ولتبقى ما بقيت الإنسانية .

فأراد الله تعالى أن يبقى مكة لأهلها على ضعفهم ، حتى لا تصل معارضتها لهذا الرسول إلى ما وصلت إليه معارضة الأمم القوية لرسلها ، حين همت كل أمة برسولها ليأخذوه ، فأخذهم الله بعذابه واستأصلهم ، وإنما هي معارضة تشتد وتلين ، وتعتمد على الجدل أكثر مما تعتمد على البطش ، ثم ينقلب ذلك إلى قتال بين أنصار الرسالة الجديدة في اتحاد كلمتهم وقوة إيمانهم ، وبين أعدائها في تفرق كلمتهم وضعف شركهم ، فتنتصر الرسالة الجديدة على أعدائها باتحاد كلمة أنصارها وقوة إيمانهم.

حينما هرب أهل مكة أمام جيش الحبشة ، واعتصموا برؤوس الجبال ، أرسل الله تعالى ريحا عاصفة على ذلك الجيش . فأتلفت ما معهم من الزاد والمؤن ، ولم يلبثوا أن انتشر فيهم مرض الجدري فأهلك كثيرا منهم ، فلم يجد من بقي منهم إلا أن يفرّ إلى بلاد اليمن .

وكانت هذه الحملة في العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نزلت فيها بعد ظهور الإسلام سورة الفيل من القرآن الكريم : (أَلَمْ تَرَ كيفَ فعل ربُّكَ بأصحاب الفيلِ . ألمْ يجعلْ كيدهمْ في تضليلٍ . وأرسل عليهمْ طيراً أبابيلَ . ترميهم بحجارةٍ مِنْ سجِّيلٍ. فجعلهمْ كعصفٍ مأكولٍ) يذكر بها أهل مكة نعمة من أكبر نعمه عليهم، مما لا يمكن نسبته إلى أصنامهم ، ليجعلوه وحده إلها لهم ، ولكن هذه

الآيات لا تدخل فيما نعنيه من صيحة القرآن فى العرب بخطر الحكم الاستعمارى لأنها تتحدث عن حكم استعمارى لم يمكنه الله من أهل مكة ، وهذه الصيحة تتحدث عن حكم استعمارى تمكن من العرب فعلا ، وتغلغل فى بلادهم شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ ولم يبق منها إلا بقعة فى وسطها تعيش فيها قبائل متفرقة متعادية .

نعم... إن موضوعنا — القرآن والحكم الاستعمارى فى بلاد العرب — لا يدخل فيه تذكيره تعالى لقريش بمنعه من استيلاء حاكم أجنبى على بلدهم ؛ وإن كان له به صلة أيضاً ، لأن موضوعنا فى حكم استعمارى حاصل فعلا ويوشك أن يقضى على مستقبل العرب جميعا . لا فى حكم استعمارى منع الله تعالى من وقوعه . كما هو موضوع سورة الفيل .

والحقيقة أن بلاد العرب — إلا نجدا والحجاز — كانت قد وقعت فى قبضة حكم استعمارى كما سبق . وأن الحكم الاستعمارى كان يحيط بهذين القطرين من جميع الجوانب . على أن الحجاز كان فيه جالية كبيرة من اليهود ، وكان لها فيه نشاط تجارى وسياسى جعله فى أسوإ حالة من الفقر والتفرق ، وقد ظهر الإسلام وزمام تجارة الحجاز فى قبضة رجل من اليهود يقال له أبو رافع سلام — بتخفيف اللام — بن أبى الحقيق . وقيل إن اسمه عبد الله وكان تاجر أهل الحجاز ، وهو من أهل خيبر وكان له مال كثير يقلّب به أهل الحجاز من اليهود والعرب . وهو الذى أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير على المسلمين ، وهو الذى حزب الأحزاب يوم الخندق .

فلم يكن الحجاز أيضا خالصا من النفوذ الأجنبي من تلك الجالية اليهودية الأجنبية التي وصل الأمر بها فيه إلى ذلك الحد ، ويمكننا أن نضيف إليه نجدا في ذلك ، لما كان من الاتصال الوثيق بين القبائل في هذين القطرين .

فإذا نظرنا في جنوب بلاد العرب وما إليه وجدنا أن بلاد اليمن وما إليها كانت واقعة قبل الإسلام في قبضة حكم استعماري ، لأن الحبشة كانت قد استولت عليها ، وقضت على حكم الحميريين فيها ، بعد أن مكثت في حكمها الوطني آلاف السنين ، ووصلت فيه إلى ما وصلت إليه من المدنية والحضارة ، حتى إنها كانت تعرف بين العرب بالقطر السعيد ، وكان «ذو نواس» آخر ملوكها الوطنيين من الحميريين ، وقد حزن العرب أشد حزن لملكهم الضائع ، وبكاه الشعراء أحر بكاء ، ومن أشهر من بكاهم في شعره «ذو جَدَنٍ» الحميري ، ومن شعره في البكاء على ذلك الملك :

هَوْنَكِ ليس يرد الدمعُ ما فاتا لا تهلكي أسفاً في إثر من ماتا
أبعد بَيْنونَ لا عينٌ ولا أثرٌ وبعد سلحين يبني الناس أبياتا(١)

وقال أيضاً :

دعيني لا أبا لكِ لن تطيقي لحاكِ الله قد أنزفتِ ريقي
لدى عزف القيان إذ انتشينا وإذ نُسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس عليّ عاراً إذا لم يشكني فيها رفيقي
فإن الموتَ لا ينهاه ناهٍ ولو شرب الشفاء مع النشوق

---

١ — بينون وسلحين : مدينتان باليمن خربها الحبشة.

ولا مترهِّب فى أسطوانٍ — يناطح جدره بيضَ الأنوق (١)
وغُمدان الذى حُدِّثت عنه — بَنَوه مسمّكا فى رأسِ نيق
بِمَنْهمةٍ وأسفله جرونٌ — وحرُّ الموحل اللثق الزليق (٢)
مصابيح السليط تلوح فيه — إذا يمسى كتوماض البروق
ونخلته التى غرست إليه — يكاد البسر يهصر بالعذوق
فأصبح بعد جِدّته رمادًا — وغيّر حسنه لهب الحريق
وأسلم ذو نوَاسٍ مستكينا — وحذّر قومه ضنكَ المضيق

وكان أن مكث ملك الحبشة لليمن نحو سبعين سنة ، فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذِى يَزَنْ الحميرى مطالبا بملك آبائه ، ولكنه سلك فى هذا طريقا غير قويم ، انتهى بأن يستبدلوا بحكم الحبشة آخر مثله . وليس هذا من حسن السياسة فى شىء ، لأنه سعى عند كسرى ملك الفرس ليساعده على استعادة ملك آبائه . وقد أوصله إليه النعمان بن المنذر ملك الحيرة بالعراق ، وكان فى الحقيقة عاملا لكسرى عليها .

فلما وصل سيف إلى كسرى قال له : أيها الملك ، غلبتنا على بلادنا الأغربة (٣) .

قال له كسرى : أىُّ الأغربة ؟ . . . الحبشة أم السِّند ؟ . . .

---

١ — مترهب : معطوف على ما فى البيت الذى قبله أى ولا دعاؤه ، جدره : جمع جدار . الأنوق : أنثى الرخم ، وهى تبيض فى شواهق الجبال .

٢ — بمنهمة : موضع الرهبان . جرون : حجارة سود ، وحر الموحل : خالص الطين الرقيق .

٣ — الأغربة : جمع غراب استعارها للحبشة بجامع السواد .

فقال سيف : بل الحبشة ، جئتك لتنصرنى ، ويكون ملك بلادى لك .

فأرسل معه كسرى نحو ثمانمائة رجل كانوا فى سجونه ، واستعمل عليهم رجلا يقال له وَهْرز ، وكان ذا سنّ فيهم ، وأفضلهم حسبا وبيتا ، وكان ملك اليمن قد آل إلى مسروق بن أبرهة من الحبشة ، فتغلب وهرز مع من انضم إليه من أهل اليمن عليه ، ودخل صنعاء قاعدة ملك اليمن فاتحا ، وأقام سيف بن ذى يَزَنٍ ملكا على اليمن ، ولكنه كان تابعا لكسرى ، يؤدى إليه خراجا كل عام ، بل كان وَهرزُ ملك اليمن فى الحقيقة ، وقد اعترف بهذا سيف فى شعر ينسب إليه :

يظنُّ الناس بالملِكيـ ـنِ أنهما قد التأما (١)
ومن يسمع بلأمهما فإن الخطب قد فقما
قتلنا القيل مسروقا وروّينا الكثيب دما (٢)
وإن القيل قيل النا سِ وَهرِزُ مقسمٌ قسما
يذوق مشعشعا حتى يُفِىءَ السبىَ والنَّعما (٣)

ولكن العرب كانت فى غفلة جاهلية ، وقد وصل الحال بها فى ذلك إلى أن تفرح بزوال حكم أجنبى لم يزل إلا ليقوم حكم أجنبى آخر مكانه ؛ فتوالت الوفود من بلاد العرب وقبائلها تهنّىء سيفا باسترداد ملك آبائه ، ويقول شاعرهم فى تهنئته بذلك ، وهو أبو الصَّلتَ بن ربيعة

---

١ — بالملكين : وهرز ومسروق . التأما : اصطلحا .

٢ — القيل : الملك .

٣ — يذوق : بحذف حرف النفى : أى لا يذوق . يفىء : يغنم .

الثقفى أو ابنه أمية :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يَزَنٍ ... ريّم فى البحر للأعداء أحوالا
يَمم قيصر لما حان رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذى سالا (١)
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرةٍ ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم ... إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا (٢)
لله درّهم من عصبة خرجوا ... ما إن أرى لهم فى الناس أمثالا
بيضا مرازبةً ، غلبا أساورةً ... أسداً تربّب فى الغيضات أشبالا (٣)
يرمون عن شُدُفٍ كأنها غبطٌ ... بزَمخرٍ يعجل المرمىّ إعجالا (٤)
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم فى الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... فى رأس غمدان داراً منك محلالا

فلما مات سيف لم يولّ كسرى حميريّا آخر مكانه بل ضم اليمن إلى ملكه ، وأقام عليها ولاة من الفرس ، وقد تولاها بعد وهرز ، ابنه المرزبان ثم المتبنجان بن المرزبان ، ثم ابن المتبنجان وقد عزله كسرى وولّى بدله باذان ، فلم يزل باذان واليا على اليمن إلى ظهور الإسلام . وهو الذى أرسل إليه كسرى بقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أن هداه الله إلى الإسلام هو ومن معه من الفرس ، فدخلت اليمن بهذا فى حكم الإسلام .

---

١ — سالا : مخفف سأل .

٢ — بنى الأحرار : الفرس الذين فتحوا اليمن وبقا بأهم باليمن يقال لهم الأبناء .
• قلقالا : تحركا .

٣ — مرازبة : ذوى رئى أساورة : رجال حرب .

٤ — شدف : قسى . غبط : عيدان هودج .

ولا شك أن حكم الفرس على اليمن كان أشد خطرا على العرب من حكم الحبشة . لأن الحبشة كانت أمة ضعيفة يسهل تغلبُ العرب عليها ، أما الفرس فكانوا أمة قوية يصعب التغلب عليهم ، وكان ملكهم باليمن أوسع رقعة من ملك الحبشة ، لأنه كان يشمل كل أقطار اليمن الممتدة إلى بلادهم من عُمان إلى حضرموت إلى غيرهما من أقطار اليمن . فإن كل هذه الأقطار كانت تابعة لحكم اليمن قديما وكانت دولة الحميريين وما يتبعها من إمارات قائمة فيها جميعا .

فكان هذا مصير حكم العرب الحميريين باليمن قبل الإسلام انتزعه الحبشة منهم أولا ، ثم ساعد الفرس سيف بن ذى يزن على إعادته إلى ملك آبائه الحميريين على أن يؤدّى خراجا إليهم كل عام ، فلما مات ولوا على اليمن ولاة منهم ، فلم يبق للحميريين فيه شيء من الحكم .

وكذلك كان أمر الفرس مع حكام العرب فى العراق من المناذرة .

فقد كان للعرب حكم قديم بالعراق ، أنشأه لهم « مالك بن فهم » القضاعى . وكانت الحيرة عاصمة ملكهم بالعراق . وهى مدينة قديمة على ثلاثة أميال من الكوفة فى موضع النجف على ضفة الفرات الغربية . وكان بختنصر قد خربها فى حروبه ، فبقيت خرابا بعد موته وانضمام أهلها من العرب إلى أهل الأنبار ، ثم أقبل عليها قوم من تهامة مع مالك بن فهم القضاعى . ومعه جماعة من الأزد وجماعة من أولاد معدّ ، وبطون من لخم ، فتحالفوا على التنوُّخ : وهو المقام ، وتعاقدوا على التآزر والتناصر ، وضمهم بهذا اسم تنوخ . وقد تولى الملك عليهم مالك بن فهم ، ثم أخوه عمرو ، ثم ابنه « جذيمة الأبرش » وكان لجذيمة

ابن أخت من لخم يسمى « عمرو بن عدى » بن ربيعة بن نصر ، وقد ملك على الحيرة بعد خاله جذيمة ، وبه ابتدأ فى الحيرة حكم المناذرة آل نصر من لخم .

ولكن هؤلاء المناذرة لم يكونوا مستقلين بحكم العراق ؛ بل كان للفرس نفوذ كبير فى حكمهم ، حتى فى عهد أشهر ملوكهم ، وهو النعمان ابن امرئ القيس ، وكان ملكا شديدا مهيبا ذا نفوذ واسع وغزوات كثيرة ، وقد مكث ملكه ٢٨ سنة — ٤٠٣ : ٤٣١ م — ومن آثاره الخورنق والسدير وغيرهما من القصور ، ويقال إنه تنصر فى آخر حياته وتنسك وترك الملك وساح فى الأرض ، كما أشار إلى هذا « عدى بن زيد » فى قوله يخاطب « النعمان بن المنذر » :

وتدبر رب الخورنق إذ أشـ ... رف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ ... لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال : وما غبـ ... ـطة حى إلى الممات يصير

ومع هذا كان للفرس وملكهم كسرى نفوذ فى ملكه ، ومن نفوذهم فيه تدخلهم فى تأليف جيشه ، فقد ألفه له كسرى من كتيبتين : يقال لإحداهما « دوسر » وهى من العرب ، ويقال للثانية « الشهباء » وهى من الفرس ، ولكنه وكان له رأى مسموع عند الفرس وإن كان تابعا لهم ، فلما اضطرب أمرهم بعد موت يزدجرد الأول تعصب لبهرام جور بن يزدجرد ، فسمع له الفرس وولوا « بهرام جور » عليهم .

وكذلك كان أمر المنذر الثالث ، وهو من أشهر ملوكهم أيضا ، وهو ابن النعمان بن امرئ القيس السابق ، وأمه ماء السماء ماوية بنت

عوف ، وينسب إليها أيضا ، فيقال له المنذر بن ماء السماء ، وقد مكث ملكه ٣٢ سنة - ٥١٤ : ٥٤٦ م - وعاصر من ملوك الفرس ملكيهما قباذ وأنو شروان ، وكان تابعا لهم أيضا ، حتى إن قباذ عزله عن ملك الحيرة حين أخذ بمذهب مزدك فى الشيوعية ولم يوافقه عليه ، وولى عليها الحارث بن عمرو ملك كندة ، فاختبأ المنذر إلى أن تولى أنو شروان على الفرس ، وكان على غير رأى أبيه قباذ فى المزدكية ، فأعاد المنذر الثالث إلى الحيرة ، وعزل الحارث بن عمرو . وقد حارب الروم مع الفرس مرتين بحكم تبعيته لهم ، وكان فى كل مرة يعود منصورا بغنائم وأموال عظيمة ، وقد جره هذا إلى معاداة الغساسنة ، وهم حكام الشام من العرب ، لأنهم كانوا تابعين فى حكمهم للروم ، وكان الذى يعاصره من ملوك الغساسنة ، الحارث بن جبلة ، وكان بينهما - فى هذه الحروب التى لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل - حروب وأيام ، ومن أيامهما يوم عين أباغ ، وقد قتل المنذر الثالث فى هذا اليوم .

وقد امتد نفوذ الفرس فى ملك المناذرة بالعراق إلى عهد النعمان بن المنذر ، وقد مكث ملكه ٢٨ سنة - ٥٨٥ : ٦١٣ م وكان ملكا عظيم الشأن أيضا ، وفى عصره عظم شأن الأدب العربى والشعر ، فقصده شعراء العرب من كل مكان ، وكان يقرّبهم من مجلسه ويجزل لهم العطاء ، ومنهم ، النابغة الذبيانى ، الذى اتخذه شاعرا لدولته ، وله فيه المدائح العظيمة ، والقصائد الرائعة . وكان عدى بن زيد العبادى الشاعر المعروف هو الذى تولى تربيته ، فكان هذا أثره فى ميله إلى الأدب والشعر ، ولكنه مع هذه العظمة كان تابعا للفرس فى حكمه ، وقد تنازع

هو وإخوته فيمن يتولى ملك الحيرة بعد أبيهم فاحتال له عدى بن زيد عند كسرى حتى آثره بالملك دونهم ، وكان عدى يكتب لكسرى أبرويز ويترجم إذا وفد عليه زعماء العرب ، فعرف النعمان له هذا الفضل وحفظ له هذا الجميل . فكان يكرمه ويقربه من مجلسه ، ويأخذ رأيه فى أمور دولته ، إلى أن أوغر صدره عليه بعض حساده من حاشيته ، فغضب عليه وسجنه ، فلما بلغ كسرى سجنه له بعث إليه يأمره بإطلاقه من السجن ، فتعجل النعمان وأمر بقتله قبل أن يصل رسول كسرى إليه ، لأنه لا يمكنه إذا وصل رسوله قبل قتله أن يعصى أمره فيه ، فأضمر هذا كسرى فى نفسه ، وولى مكان عدى فى ديوانه ابنه زيدا ، فلم يزل يحتال عنده حتى أوغر صدره على النعمان ، وحمله على قتله ليأخذ بثأر أبيه عدى منه .

ويقال فى سبب هذا : إن زيدا ذكر لكسرى أبرويز جمال نساء آل المنذر ، ووصفهن له فكتب أبرويز إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته ، وأرسل زيدا بكتابه إليه ، فلما قرأه قال لزيد : يا زيد أما لكسرى فى مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ . . . فقال زيد : إنما أراد الملك إكرامك - أبيت اللعن - بصهرك . ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده ، وأعتذر بما يقبله . فقال له النعمان : فافعل . فقد تعرف ما على العرب فى تزويج العجم من الغضاضة والشناعة ، فأدى زيد إلى كسرى قول النعمان فى مها السواد على أقبح الوجوه ، وأوجده عليه فقال له كسرى : ما المها ؟ . . . فقال : البقر . وحمله على حقيقته ، مع أن النعمان يريد نساء كلها فى سعة العيون .

فأخذ كسرى ذلك على النعمان ، وقال . ربّ عبد قد صار فى الطغيان إلى أكثر من هذا.

فلما بلغت كلمته إلى النعمان تخوفه ، ففر هاربا حتى صار إلى قبيلة طىء بالبادية . وكان له صهر فيهم ، ثم خرج من عندهم حتى أتى بنى رواحة من عبس ، فقالوا له : أقم معنا فإننا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا . فجزاهم الخير ، ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه ، ويزيل من نفسه وشاية زيد فيه ، فلما أتى المدائن عاصمة كسرى صف له ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفير ، فلما صار النعمان بينهن قلن له : أما فينا للملك غنى عن بقر السواد ؟ . . .

فعلم النعمان أنه غير ناج منه ، ثم أمره كسرى فجلس فى مجلسه بساباط المدائن . وأمر به بعد هذا فرى تحت أرجل الفيلة . وقيل إنه مات فى محبسه بساباط

وكان النعمان حين أراد كسرى مسلما مر على بنى شيبان ، فأودع سلاحه وعياله عند هانئ بن مسعود الشيبانى ، فبعث كسرى إلى هانئ يطالبه بتركة النعمان ، فامتنع وأبى أن يخفر الذمة . وكان هذا هو السبب الذى أهاج حرب ذى قار ، وهو ماء قريب من البصرة . . .

وذلك أن كسرى لما قتل النعمان ولّى بدله على الحيرة ، إياس بن قبيصة ، الطائى ، وكتب إليه يأمره أن يضم إليه ما كان للنعمان من ودائع عند بنى شيبان ، فأبوا ذلك وناصرتهم قبائل بكر ، فقامت تلك الحرب بينهم وبين الفرس ومن ناصرهم من بعض العرب ، فانتصر بنو شيبان

وبنو بكر عليهم . وكان هذا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . أخبر به أصحابه وقال : «إن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا» ، وهو يدل على كرهه لاستعمار العجم لهم .

وقد اكتفى به بنو شيبان فى منع الاعتداء عليهم ، فبقى للفرس نفوذهم فى العراق - كاليمن - إلى ظهور الإسلام ، وكان المنذر بن النعمان آخر من ملك الحيرة من المناذرة تحت نفوذ الفرس ؛ وقد أسر فى حرب الردّة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

فهذا ما كان من أمر كل من اليمن والعراق إلى ظهور الإسلام وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمله على النهضة بالعرب وتخليصهم من الحكم الاستعمارى الذى أخذ بخناقهم ، وكاد يلتهم كل بلادهم ، ومع هذا لم يتنبهوا إلى خطره ، ولم يدر بخلدهم أن يكونوا أمة لها كيان مستقل فى الحياة ، ولا يصح أن تكون آلة فى يد غيرها من الأمم التى كانت مستولية على أكثر بلادها .

وبقى أن نبين كيف وقع الشام - من بلاد العرب - فى قبضة حكم استعمارى آخرى هو الحكم الرّومى ؟ ... وكيف كان حكم الغسانيين من العرب فى الشام تابعا لحكم الروم ؟ ...

فالغسانيون يقال لهم آل جفنة ، نسبة إلى أول ملوكهم . وهو «جفنة بن عمرو مزيقياء» ، وهم قوم من أزد اليمن ، هاجروا منها بعد حادثة سيل العرم ، فنزلوا بتهامة على ماء يقال له غسان ؛ فنسبوا إليه . ثم انتقلوا منه إلى مشارف الشام ، وكان فيها ملك للضجاعمة من قضاعة ، فأقاموا بجوارهم على إتاوة يدفعونها لهم ، ثم غلبوهم على تلك البلاد ،

وأقاموا لهم فيها إمارة صغيرة ابتدأت فى أواسط القرن الثانى أو الثالث الميلادى . وكانت عاصمة ملكهم مدينة «بصرى» فى حوران ، وتعرف أنقاضها الآن بأسكى شام ، وكان لهم ملك عظيم فى تلك البلاد استمر إلى ظهور الإسلام ، وقد شادوا فيه كثيرا من القصور ، وبنوا المدن والقرى والقناطر ، وأصلحوا الصهاريج ، ومما ينسب بناؤه إليهم قسطل البلقاء ، وهو الذى يقول فيه كثير عزة :

سقى الله حيا بالموقر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب

ومن قصورهم صرح الغدير ، والقصر الأبيض ، والقلعة الزرقاء ، إلى غير هذا من آثارهم .

ولكن إمارتهم لم تكد تظهر هذا المظهر من العظمة حتى توجه الروم إليها بعطا معهم ، ليضموها إلى جانبهم فى الحروب التى كانت قائمة بينهم وبين الفرس ، فاستخدموا أمراءها فى هذه الحروب بجانبهم ومنحوهم ألقاب الملوك ، فعلا شأنهم بتبعيتهم لهم ، ودان لهم بها كثير من العرب ، وقصدهم الشعراء للمدح والعطاء ، وممن قصدهم من الشعراء النابغة الذبيانى ، وحسان بن ثابت الأنصارى ، وله فيهم مدائح عظيمة فى الجاهلية ، حين كان يقصدهم بالشام ، فيجزلون له العطاء ، ويمنحونه الهدايا العظيمة ، ولكن أثرهم فى الأدب العربى كان دون أثر المناذرة فيه ، لأن المناذرة كانوا أقرب إلى عرب البادية وديانتهم منهم وكان بين الدولتين منافسات فى ذلك ، ومن هنا ما يروى أن حسان بن ثابت زار الحارث بن أبى شمر الغسانى — وكان النعمان ابن المنذر يساميه — فقال الحارث لحسان بن ثابت وهو عنده :

يا ابن الفريعة . لقد نبئت أنك تفضّل النعمان عليّ .

فقال :

وكيف أفضله عليك ؟... فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثمارك (١) أشرع من غديره . ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغور من بحره ، وليومك أطول من شهره ، ولشهرك أمدّ من حوله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده . وإنك من غسان وإنه من لخم ، فكيف أفضله عليك وأعدله بك ؟ . . .

فقال الحارث :

يا ابن الفريعة ، هذا لا يسمع إلا في شعر .

فقال حسان :

نُبِّئتُ أن أبا منذرٍ يساميك للحارث الأصغر
قفاؤك أحسن من وجهه وأمك خيرٌ من المنذر
ويسرى يديك على عسرها كيمنى يديه على المعسر

والظاهر أنه كان للغسانيين إمارات بالشام لا إمارة واحدة . فكانت ديار ملوكهم باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام .

ولكن عظمة هؤلاء الملوك الغسانيين تتضائل كثيرا إذا نظر

---

١ — الثمار : الماء القليل .

إليهم من جهة أنهم لم يكونوا إلا عبيدا للروم . كما كان الملوك المناذرة عبيدا للفرس . فلم يكن الروم ينظرون إلى هؤلاء الملوك الغسانيين إلا على أنهم عبيد لهم. فيتصرفون فيهم تصرف الأحرار فى العبيد. ويريقون دماءهم فى حروبهم مع الفرس من غير أن يكون لهم فيها ناقة ولا جمل. وقد سبقت كلمة كسرى فى النعمان بن المنذر حينما وشى فيه عنده زيد بن عدىّ - ربّ عبد قد صار فى الطغيان إلى أكثر من هذا - وهذه كانت نظرة كل من الفرس والروم إلى كل من كانوا يمنحونهم ألقاب الملوك من المناذرة والغسانيين . فلم يكونوا يمنحونهم ألقابا حقيقية ، وإنما كانت خدعا يخدعون بها أولئك الملوك . ويخدعون بها أغرار العرب فى الجاهلية . ممن كان يؤمن بهذه الألقاب الإسمية ، من أولئك الشعراء الذين كانوا يقصدون أصحاب هذه الألقاب للعطاء ، ويتملقونهم بذلك الشعر الذى كان يقال لغرض الكسب ، ولم يكن فى شىء من صادق المدح ، على ما كان من قوة ألفاظه . وعلى ما كان من جزالة معانيه. إلى غيرهم من أصحاب الغفلة فى تلك الجاهلية من الخاصة والعامة ، فقد خدعوا جميعا بهذه الألقاب ، ولم يحرّك واحد منهم شفة للتخلّص من تلك العبودية ، ولم يحاول أن يقوم بينهم بالدعوة إلى الحرية ، مع أن شاعرهم كان يقول :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة ... بل فاسقنى بالعزّ كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أعظم منزل

ولكنها كانت ألفاظا جوفاء ، لا تقصد إلى أهداف بعيدة فى معنى العز . ولا تنحو نحو حياة عزيزة للعرب عامة ، وإنما هو عز الفرد

لاعز الجماعة ، أو عز القبيلة لاعز الأمة التى تجمع ما فيها من قبائل . فلم يكن هناك إلا عز الفرد أوعز القبيلة فيما كان بينهم من منافسات داخلية فى هذه الحياة الذليلة التى لا يملكون فيها حكم أنفسهم ، وإنما كان الأجنبي هو الذى يحكم على الحقيقة فيهم .

فإذا أردت أن أسوق دليلا على هـــذا فى الملوك الغسانيين سقت أشهر ملك فيهم ، وهو الحارث بن جبلة أو ا ن أبى شمر . وقد عرف باسم الحارث الأكبر ، وكانت مدة حكمة ٤٠ سنة - ٥٢٩ : ٦٦٩ م - وقد عاصر جستنيان من قياصرة الروم ، وهو الذى جعله زعيما على جميع القبـائل العربية بالشام ، ومنحه لقب « بطريق » من ألقاب دولة الروم . وهو أعظم لقب فيها بعد لقب « الأمبراطور » ، ولم يكن يريد به إلا أن يخدعه ويخدع من معه من العرب . فيسوقهم سوق الأغنام فى حرب الروم مع الفرس . فلما أغار كسرى أنوشروان على بلاد الروم أمر جستنيان الحارث أن يقوم معه بدفع هذه الغارة ، وقد سبق أن هذا أدى إلى وقوع حروب داخلية بين العرب أنفسهم ، لأن منهم من كان - كما سبق - يناصر الفرس على الروم ، ومن أشهر أيامهم فى ذلك يوم عين أباغ ، وكان يوما للغسانيين على المناذرة . وفيه كما سبق قتل الحارث المنذر بن ماء السماء ، واستولى على مدينة قنسرين . فأضافها إلى ملكه ، بل أضافها فى الحقيقة إلى ملك الروم .

فلما قارب الحارث آخر عهـــده بالملك ذهب إلى القسطنطينية ليستجدى من قيصرها تولية ابنه المنذر من بعده مكافأة له على ما أظهر من البطولة فى حروبه من أجل الروم ، وكانت أحاديث قوته وشجاعته

قد سبقته إلى أهل القسطنطينية ، حتى إنهم كانوا يخوّفون أبناءهم به ، فلما رأوه راعهم منظره ، وهالهم شكله . ولكن هذا لا يغير شيئا من من حقيقة هذا الملك عندهم ، لأنه لم يكن فى الحقيقة إلا عبدا تابعا لهم ، يأتمر بكل ما يأمرونه به ، ويسير فى سياسته على وفق سياستهم .

فكذلك كان تغلغل كل من الحكمين الاستعماريين — الفارسىّ والرومىّ — فى البلاد العربية ، وكذلك اقتسم الحكمان أمة العرب بسخّرانها فيما بينهما من حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل . وما كان للإسلام أن يقف جامدا بإزاء خطر هذا الحكم الاستعمارى ، لأنه يريد أن ينهض بدعوته ، ولا يمكنه أن ينهض بها إلا إذا نهض بالأمة العربية ، لأنها جنده الأول . وهى التى توجهت إليها هذه الدعوة أولا ، فلم يكن له بدّ حينئذ من أن يصيح فيها صيحة مدوّية توقظها من غفلتها عن خطر الحكم الاستعمارى فيها ، وتبين لها أنه لا سبيل لتخليصها منه إلا باستجابتها لدعوة الإسلام ، لتوحّد كلمتها ، وتزيل ما بينها من تفرق فى داخليتها وخارجيّتها ، حتى تكون لها سياسة إسلامية موحدة ، يكون رائدها مصلحة العرب وحدهم ، لا مصلحة الفرس أو مصلحة الروم ، بل يكون رائدها مصلحة الشعوب البشرية جميعا ، لأن الإسلام دعوة عامة للعرب وغيرهم . ولا فرق فيها بين عربى وغير عربى .

وقد وردت هذه الصيحة الخطيرة فى سورتين من سور القرآن الكريم — سورة الرعد وسورة الأنبياء — فأما الذى ورد فى سورة الرعد فقوله تعالى أولا فى الآية ٣١ من هذه السورة : (ولو أنّ

قرآنا سيّرت به الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّمَ به الموتى؛ بل لله الأمر جميعاً ، أفلم ييأسِ الذين آمنوا أنْ لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً ، ولا يزال الذين كفروا تصيبهمْ بما صنعوا قارعةٌ أو تحل قريباً من دارهمْ حتى يأتيَ وعدُ اللهِ . إن الله لايخلفُ الميعادَ) وقوله تعالى ثانياً فى الآية ٤١ من هذه السورة : (أوَلمْ يروْا أنّا نأتى الأرضَ ننقصها مِنْ أطرافها واللهُ يحكم لا معقبَ لحكمه وهوَ سريعُ الحساب) وأما الذى ورد فى سورة الأنبياء فقوله تعالى فى الآية ٤٤ من هذه السورة : (بلْ متّعنا هؤلاءِ وآباءهمْ حتى طالَ عليهمُ العمرُ ، أفلا يروْن أنّا نأتى الأرضَ ننقصُها مِن أطرافِها ، أفهمُ الغالبونَ ؟) .

فما هى تلك القارعة التى لا تزال تصيب الذين كفروا بما صنعوا أوتحلّ قريباً من دارهم ؟... وماهى تلك الأرض التى يرون أن الله يأتيها فينقصها من أطرافها ؟... وفى أى زمن نبههم الله تعالى إلى خطورة هذا وسوء عاقبته ؟ ... لأن تحديد هذا الزمن يفيد فى الفصل بينى وبين المفسرين فيما اتفقوا عليه فى تفسيرهم لهذه الآيات ، وفى خلافى لهم فى تفسيرها على الوجه الذى يوافق زمن نزولها ، ولأجل هذا يجب أولا بيان زمان نزول سورة الرعد ، وبيان زمان نزول سورة الأنبياء :

فأما سورة الرعد فقد اختلف فى أنها مكية أو مدنية ، وإن قال الأصمّ إنها مدنية بالإجماع إلا قوله تعالى : (ولوْ أنّ قرآناً سيرت به الجبال...) الآية السابقة ، فقد حكى الفخر الرازى هذا الإجماع عنه ، ولكنه ذكر قبلَ حكايته له أنها مكية إلا قوله تعالى: (ولايزال الذين

كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ...) الآية السابقة ، وقوله فى آخر السورة: (ومن عنده علم الكتاب) لأنه عبد الله بن سلام ، وهو لم يسلم إلا بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد بسط ابن الجزرى هذا الخلاف فيما نقله عنه تفسير الخازن فقال : اختلفوا فى نزول سورة الرعد على قولين : أحدهما أنها مكية . رواه أبو طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة ؛ وروى صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين : إحداهما قوله تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) الآية السابقة ، والأخرى قوله تعالى فى آخر السورة : (ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) والقول الثانى أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة ، وهما قوله تعالى : (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال) إلى آخر الآيتين ، وقال بعضهم : المدنى منها قوله تعالى : (هو الذى يريكم البرق) إلى قوله (دعوة الحق) .

ولا شك أنه بعد بسط هذا الخلاف لا يكون هناك وجه لحكاية الأصم الإجماع على أنها مدنية ، والذى أختاره هو القول الأول ، لأن آيات السورة كلها فى شأن مشركى أهل مكة ونحوهم ، وليس فيها ما يبدو لأول النظر أنه مدنى إلا قوله تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وقوله تعالى : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ومن الغريب أن بعض من ادعى أن هذه السورة مدنية يستثنى الآية الأولى منها ، ويذهب إلى أنها مكية .

أما سورة الأنبياء فلم أجد فيما رجعت إليه من التفاسير إلا أنها حكية ، وحينئذ يكون قوله تعالى فيها : (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ؟. . .) مكيا لامدنياً بلا خلاف .

ولكن المفسرين حين يأخذون فى تفسير الآيات السابقة لايتذكرون زمان نزول السورتين ، ليوجهوا تفسيرها على الوجه المختار فى زمان نزولها ، وسأذكر أولا تفسيرهم لهذه الآيات ، لأبين انحرافه عن الوجه الصحيح فى تفسيرها ، ثم أذكر بعد هذا تفسيرى لها ، ليتبين أنها كانت صيحة القرآن فى العرب بخطر الحكم الاستعمارى فيهم .

فى تفسير قوله تعالى : (ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد) يقول الفخر الرازى فى الآية وجهان :

الأول : ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية ، تقرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم ، أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويضطربون ، ويتطاير إليهم شررها ، ويتعدى عليهم شرورها ، حتى يأتى وعد الله وهو : موتهم أو القيامة .

والقول الثانى : ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم - من العداوة والتكذيب - قارعة ، لأن رسول الله

صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب من مواشيهم ، أوتحلّ أنت يامحمد قريباً من دارهم بجيشك كما حلّ بالحدَيبية ، حتى يأتى وعد الله وهو فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك ،ثم قال : (إن الله لايخلف الميعاد) والغرض منه تقوية نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإزالة الحزن عنه .

وهذا هوالذى يكاد المفسرون يجمعون عليه فى تفسير الآية ، ولعل القول الأول قول من يذهب إلى أن الآية مكية أو أن سورة الرعد كلها مكية ، ولعل القول الثانى قول من يرى أن الآية مدنية أو أن سورة الرعد كلها مدنية ، وقد عرفت ضعف قول من يذهب إلى أن الآية أو السورة مدنية لا مكية ، فلا يتجه التفسير المبنى على هذا المذهب ، وكذلك لا يتجه تفسيرهم لها على المذهب الأول ، لأن ما يصيب الكفار من الدواهى فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم إلى أن يأتى وعد الله بالقيامة أو موتهم يصيب المؤمنين أيضـــا ، بل ورد فى بعض الأحاديث ما يفيد أن المؤمنين أكثر إصابة فى ذلك من الكفار ، على أن الكفار لم يكونوا يشعرون باختصاصهم بشىء من ذلك حتى يكون هناك فائدة من تنبيههم إليه ، ومن تحذيرهم من عاقبته ، بل كان هـــذا يجرى فيهم على العادة ، كما يجرى الآن

وكما يجرى فى كل زمان ومكان ، من غير فرق بين مؤمن وكافر .

وفى تفسير قوله تعالى فى سورة الرعد : (أو لم يَروا أنا نأتى الأرضَ ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب) يقول الفخر الرازى . فيه أقوال :

الأول : المراد أنا نأتى أرض الكفرة تنقصها من أطرافها، وذلك لأن المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرا وجبرا ، فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والأمارات على أن الله تعالى ينجز وعده .

والقول الثانى: المرادموت أشرافهاوكبرائها وعلمائهاوذهاب الصلحاء والأخيار .

والقول الثالث:المراد أو لم يروا مايحدث فى الدنيا من الاختلافات. خراب بعد عمارة ، وموت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة ؛ فيجعلهم ذليلين بعدأن كانوا عزيزين ، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ؟ ! .

والقول الرابع : المراد خراب الأرض ، والمعنى أو لم يروا أنا نأتى الأرض فنخربها ونهلك أهلها ، أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك .

ويكاد المفسرون يجمعون أيضاً على هذه الوجوه التى ذكرها الفخر الرازى ، والوجه الأول مبنى على أن السورة مدنية ، وقد عرفت ضعف القول بأنها مدنية لا مكية ، والوجوه الأخيرة مبنية على القول بأن السورة مكية ، وهى وجوه بعيدة كل البعد عن نص الآية : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض تنقصها من أطرافها) لأنها فى واد ونص الآية فى واد آخر ، وليس فيها شىء مما تفيده الآية من أن هناك أرضا ، ومن أن هناك أطرافاً تنقص من هذه الأرض ، فما هى هذه الأرض التى تنقص

من أطرافها ، لا شك أن هذه الوجوه السابقة لا تعين هذه الأرض ، ولا تبين كيف تنقص أطرافها ، وحينئذ لا تكون فى شىء من تفسير هذه الآية .

وفى تفسير قوله تعالى فى سورة الأنبياء (أفلا يَرَوْن أنا نأتى الأرضَ ننقصها من أطرافها، أفهم الغالبون ؟) يذهبون تلك المذاهب السابقة فى تفسير الآية الثانية من سورة الرعد ، لأنها مثلها سواء بسواء ، بل تزيد عليها أن سورة الأنبياء مكية باتفاق ما رجعت إليه من التفاسير ، ومع هذا يذهب بعضهم فى تفسير هذه الآية منها إلى الوجه السابق الذى لا يمشى إلا على أنها مدنية ، وهو أن المراد أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، نأخذ الواحد منها بعد الواحد ، ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ، ونزيد فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم ، ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا ، وننقص من الشرك بإهلاك أهله ، أما كان لهم فى ذلك عبرة ، فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وإرادته فيهم ، ولا يقدرون على مغالبته ، ثم قال (أفهم الغالبون ؟) أى أفهؤلاء هم الغالبون أم نحن ؟ .. وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع ، والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون .

وكل هذا تخبط فى تفسير هذه الآيات ، وفيه حمل لها على وجوه لا شىء فيها من القوة والروعة ، ولا شىء فيها من الإثارة وتحريك النفوس إلى النهوض ، لتتيقظ من غفلتها عن خطر الحكم الاستعمارى

فيها ، وتعمل على التخلص منه بالاستجابة للدعوة الإسلامية الجديدة التى توحد كلمتها ، ولا سبيل إلى نهوضهم إلا بها .

وإنما القوة والروعة فى أن تكون الآيات الثلاث مكية من سور مكية ، وفى أن تكون الأرض حينئذ أرض العرب جميعها لا أرض مكة وحدها ، وفى أن تكون أطرافها هى اليمن وما إليه فى الجنوب ، والعراق وما إليه فى الشرق ، والشام وما إليه فى الشمال ، وفى أن يكون انتقاصها من الدول الأجنبية ، وهى الدول الاستعمارية الكبرى فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ؛ ودولة الروم فى الشمال والغرب ، إذ كانت دولة الفرس تنتقص من أرض العرب اليمن والعراق ، وكانت دولة الروم تنتقص منها الشام ، وكانت بلادا عربية صميمة ، فانتزعها الاستعمار من صميم بلاد العرب .

أما القارعة فى الآية الأولى فهى ما كان يصيب مكة من الحروب كحرب أصحاب الفيل وحروب الفجار ، وما كان يحلّ قريبا منها هو ما كان يحل باليمن والشام والعراق ، ويجوز أن تكون القارعة ما كان يصيب بلاد العرب كلها من حروب الاستعمار فيها ، وأن يكون ما يحلّ قريبا منها حروب الفُرس والروم ، لأنها كانت بلاءً عاما على الشعوب التى تشترك فيها ، وكانت تكوى العرب بنارها أيضا ، وقوله تعالى فى ذلك (حتى يأتى وعد الله) يريد وعده بغلبتهم لمغتصبى بلادهم بعد ظهور الإسلام ، وباستخلافهم فى الأرض كما استخلف الأمم قبلهم ،

وهنا أمران لا بدّ من ملاحظتهما أيضا :

أولهما : أن مشركى مكة لم يصابوا بما يصح أن يسمى قارعة بعد

الهجرة إلى المدينة إلا فى غزوة بدر الكبرى ، وكانت فى السنة الثانية من الهجرة ، ولكنهم أصابوا المسلمين مثلها بعدها فى غزوة أحد ، وكانت فى السنة الثالثة من الهجرة ، فكانت قارعة بقارعة ، حتى إن أبا سفيان صعد الجبل بعد انتهائها وقال : نعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل .

فلما أتى الموعد فى العام المقبل كان مشركو مكة مجدبين ، فلم يتمكن أبو سفيان من الوفاء بوعده . فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج حتى لا يوسم بخلف الوعد ، فاستأجر نعيم بن مسعود الأشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة ، فقدم نعيم المدينة ، وقال للمسلمين : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فلم يزدهم تخويفه لهم إلا إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . وخرج النبى صلى الله عليه وسلم بهم فى ألف وخمسمائة حتى أتوا بدرا فى موعدهم ، فلم يجدوا بها أحدا من المشركين ، فأقاموا بسوقها لا يشاركهم فى تجارته أحد ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء . لأن أبا سفيان لم يخرج إليهم .

فلما كانت السنة الخامسة من الهجرة خرج أبو سفيان إلى المدينة فى جموع من المشركين واليهود ، فحاصروها حصاراً شديداً وأصاب المسلمين فى ذلك من الضيق ما أصابهم ؛ إلى أن أوقع الله الخلاف بين أبى سفيان واليهود فتفرقوا عنهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتفرقهم .

ولما كانت السادسة من الهجرة كان صلح الحديبية بين المسلمين ومشركى قريش ، وكانت شروطه قاسية على المسلمين ؛ وقد استمر هذا الصلح بين

الفريقين إلى أن نقضه مشركو مكة ؛ وكان هذا سببا فى فتح المسلمين لها فى السنة الثامنة من الهجرة .

وهذا إجمال لما كان بين المسلمين ومشركى مكة قبل فتحها ، يمكننا أن نأخذ منه أن ما بينهما كان سجالا ؛ يوم للمسلمين عليهم ؛ ويوم لهم على المسلمين ، ولم يكن فيه لمشركى مكة قارعة مثل قارعة من أصيبوا من الأمم قبلهم ؛ فلم يبق إلا أن تكون تلك القارعة سقوط بلاد العرب يد الاستعمار الأجنبى ؛ وقد أصاب مشركى مكة منه قارعة بحملة أصحاب الفيل من الحبشة ؛ ففروا منهم إلى رؤوس الجبال ؛ ولم ينجهم منهم إلا ما أرسله الله من الطير الأبابيل عليهم .

وثانيهما : أن الأرض فى قوله تعالى فيما سبق : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) مثل الأرض فى قوله تعالى فى أول سورة الروم (الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) لأن أل فيها للعهد لا للجنس ، وليست مثل أل فى الأرض التى وردت فى القرآن مقابلة للسماء . وإذا كانت أل فى الأرض فى الآيتين السابقتين للعهد فالمراد بها أرض العرب ، لأن المعهود عندهم أرضهم ، وإنما قال تعالى (فى أدنى الأرض) لبيان شدة ضعف أمر الروم فى ذلك ، وأنه وصل بهم إلى أن غلبوا فى أدنى أرضهم إلى أرض العرب ، وهذا بعد أن اخترق الفرس أرضهم كلها إلى هذا الموضع ، وهو الذى تمت فيه الهزيمة عليهم .

وإذا كان المراد بالأرض فى آية : (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) أرض العرب لا أرض مكة ، فالنقص من أطرافها

لم يكن من المسلمين ، وإنما كان من الفرس والروم ، لأنهم هم الذين كانوا ينقصون من أطرافها فى الجنوب والشمال ، والمسلمون لم يستولوا على هذه الأطراف إلا بعد فتح مكة ، فقد استولوا على بعضها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، واستولوا على بعضها الآخر فى خلافة أبى بكر وعمر .

وبعد ... فقد سبق حديث : « إن هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » ، وله دلالته على أن الإسلام كان بعد ظهوره بشير نصر العرب على مستعمريهم من الفرس والروم ، فلا غرو أن تكون الآيات السابقة مكية ، وأن تكون صحيحة فيهم توقظهم إلى خطر هذا الحكم الاستعمارى .

وهذا كله اجتهاد منى يعتمد على الظن والترجيح ، فإذا لم يكن ماذكرته فى تفسير تلك الآيات متعينا فيها فإنه يكون عندى راجحا ، والله تعالى أعلم بمراده من كتابه ، وما نريد إلا الوصول بقدر ما يمكننا إلى علم أسراره .

القرآن والحكم الاستعمارى

فى بنى إسرائيل

سيكون الكلام هنا على بنى إسرائيل فى قديمهم حين ذكر القرآن ما كان من وقوعهم فى حكم استعمارى: يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وذلك هو حكم فرعون الذى كان يعاملهم فى ملكه معاملة العبيد، ولم يكن لهم من ذنب إلا ما كانوا يدينون به من التوحيد، ولا يدينون بما يدّعيه من الألوهية، كما ورد فى قوله تعالى فى الآية ٤ من سورة القصص: (إنّ فرعونَ علا فى الأرض وجعلَ أهلَها شيعاً، يستضعفُ طائفةً منهمْ، يذبحُ أبناءهمْ ويستحيي نساءهمْ إنه كانَ مِنَ المفسدين) فهذه الطائفة هى بنو إسرائيل على عهدهم فى مصر.

وقد بعث الله تعالى موسى عليه السلام فيهم رسولا منهم، فأنقذهم من هذا الحكم الاستعمارى الظالم، وذهب بهم إلى الأرض المقدّسة، فعاشوا فيها ملوكا وأحرارا بعد أن كانوا عبيداً. وكان لهم دولة عظيمة فى هذه الأرض المقدسة، حكمهم فيها أولا قضاة لا يتوارثون الملك فيهم، وكان من هؤلاء القضاة أنبياء اختارهم الله تعالى لحكمهم، ثم حكمهم ملوك كان بعضهم من الأنبياء أيضا.

فكانت دولتهم فى ذلك العهد القديم الذى لم ينحرفوا فيه عن دينهم هى الدولة الوحيدة التى ترفع راية التوحيد فى الأرض، ويحكمها قضاة

وملوك من الأنبياء، وأشباه الأنبياء، لا يدَّعون الألوهية، ولا يتخذون من الرعية عبيداً لهم، كما تفعل ملوك الوثنية، وهـذا هو الذى أشار إليه تعالى فى الآية ٢٠ من سـورة المائدة: (وإذْ قالَ موسى لقومِهِ: يا قومِ اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ جعلَ فيكمْ أنبياءَ، وجعلكمْ ملوكاً، وآتاكمْ مالمْ يؤتِ أحداً منَ العالمين) فكانوا ملوكاً: أى أحراراً فى هـذا الملك القائم علَى أساس العبودية لله تعالى وحـده، وعلى أن المحكومين فيه أحرار كالحاكمين سواء بسواء.

ولكن بنى إسرائيل انقسموا على أنفسهم بعد أن وصل ملكهم إلى أزهى عصوره فى عهد داود وسليمان عليهما السلام، ووقعوا فى حكم طغاة الاستعمار كما وقع غيرهم من الشعوب فى بقاع الأرض، فضعف أمرهم بتفرّقهم، وسلبهم الله ما أنعم به عليهم، لأنهم غيروا أمره فى التوراة، وعَصَوْا أنبياءه وقتلوا بعضهم وسجنوا بعضهم، فسلط عليهم غيرهم من الأمم الوثنية المعاصرة لهم، لأنهم عصوه على علم، وغيرهم من الوثنيين كانوا يعصونه على جهل، ولا شك أن من يعصون الله على جهل أخف حالا ممن يعصونه على علم، فصاروا أذلاء بعد أن كانوا أعزاء، وصاروا عبيداً بعد أن كانوا أحراراً، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعصيانهم له.

وهـذا هو قوله تعالى فى الآيات ٤ — ٨ من سـورة الإسراء: (وقضيْنا إلى بنى إسرائيلَ فى الكتابِ لتفسدُنَّ فى الأرضِ مرَّتين ولتعلُنَّ علوّاً كبيراً. فإذا جاءَ وعدُ أولاهما بعثنا عليكمْ عباداً

لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلالَ الديار ، وكانَ وعدا مفعولا. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنينَ وجعلناكم أكثرَ نفيرًا . إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فلها فإذا جاءَ وعدُ الآخرةِ ليسوءُوا وجوهكم وليدخلوُا المسجدَ كما دخلوه أول مرةٍ وليتبرُوا ماعلَوْا تتبيراً . عسى ربكم أنْ يرحمكم ، وإنْ عدتم عدنا ، وجعلناجهنمَ للكافرينَ حصيراً) .

ولاأريد أن أطيل هذا ببيان ماوقع فيه المفسرون قديما وحديثا من الاضطراب فى تعيين ذلك العهد الذى أفسد فيه بنو إسرائيل فى الأرض مرتين ، وكان أحسنهم حالا فيه من تنبه إلى ما فى بعضه من الاضطراب ، واكتفى بأن يحكم عليه بأنه موضوع ، ولم يكلف نفسه أن يرجع إلى المصادر التاريخية الصحيحة التى تفيد فى تعيينه ، لأنه يرى أن هذه الآيات مسوقة للعظة والعبرة ، فالمهم أن نستخلص هذا منها ، ولايهم بعد هذا تعيين عهد وقائعها ، لأنه من مباحث علم التاريخ .

وإنى أرى أن هذا جدٌ مهم أيضا ، لأن ذلك الاضطراب فى تفسير هذه الآيات قد يتخذ ذريعة عند المتعصبين على القرآن للطعن عليه به ، وتحميلهم له منه ما لايصح تحميله له ، وإذا كان من المفسرين قديما وحديثا من استعان فى تفسيره لهذه الآيات بأساطير إسرائيلية قديمة ، فإن لى أن أستعين فى تفسيرها بما ورد فى كتب التاريخ الصحيحة قديمة كانت أو حديثة . كتاريخ يوسيفوس وغيره من الكتب التى يعوّل عليها فى التاريخ .

لما مات سليمان عليه السلام تولّى ابنه رحبعام الملك بعده سنة ٩٧٥ ق م ، وقد انقسمت مملكة إسرائيل فى عهده إلى قسمين ، فانحاز عشرة من أسباط بنى إسرائيل إلى يربعام بن ناباط ، وأقاموه ملكا عليهم . واتخذوا مدينة السامرة قاعدة لمملكتهم . وبقى رحبعام بن سليمان ملكا على سبطى يهوذا وبنيامين فى مدينة أورشليم وما يليها .

وكان السبب فى انقسام بنى إسرائيل عليه اتباعه مشورة أصدقائه من الأحداث ، ورفضه رأى الشيوخ فى مسالمة الشعب ومعاملته بالرفق واللين ، وكانت أكثر أيامه حروبا مع يربعام بن ناباط وبنى إسرائيل.

وفى عهده زحف شيشق ملك مصر إلى أورشليم ونهب الهيكل

وقد مكثت مملكة السامرة إلى سنة ٧٢١ ق م . فاستمر ملكها ٢٥٤ سنة. وكان عدد ملوكها تسعة عشر ملكا ، وكان أكثرهم قد ترك عهد التوراة وعبد الأصنام ، فعاجلهم الله تعالى بعقاب الدنيا ، وقضى على مملكتهم فى ذلك التاريخ . فزحف عليهم شلمناصر ملك أشور سنة ٧٢١ ق م . وحاصر مدينة السامرة إلى أن استولى عليها ، وأسر الأسباط العشرة مع ملكهم ونقلهم إلى أشور ، فكانوا مستعبدين فيها للأشوريين ، وأتى شلمناصر بقوم من أشور من قبيلة الكوفيين فأسكنهم مدن السامرة بدل الأسباط العشرة ، ومن هؤلاء نشأت طائفة السامرة .

أما مملكة يهوذا فقد امتدت أكثر مما امتدت مملكة إسرائيل ، وكان بعض ملوكها من أهل الصلاح والتقوى ، وبعض ملوكها من أهل الفساد والعصيان ، فتركوا عهد التوراة وعبدوا الأصنام مثل ملوك إسرائيل ، وكانت حروب هذه المملكة متصلة مع ملوك مصر وأشور والسامرة ،

ولما اتحد ملك الشام وملك السامرة على أحاز ملك يهوذا أرسل إلى ملك أشور تغلث فلاسر ليساعده عليهما ، فأتى لمساعدته واستولى على مدينة دمشق وخربها ، وفرض الجزية على مملكتى إسرائيل ويهوذا ، فبقيت مملكة يهوذا تدفع الجزية للأشوريين إلى أن قام ملكها حزقيا فحاربهم وانتصر عليهم ، وقد غزا سنحاريب ملك أشور مملكة يهوذا فى عهده وحاصر مدينة القدس ، فنصره الله عليه ورده مهزوما إلى بلاده .

وقد ملك يهوذا بعد حزقيا ابنه منسى فغزاه أسر حدون بن سنحاريب وأسره ، ونقل قوما من مملكة يهوذا إلى مدن السامرة فأقاموا فيها . . .

ثم ملك يهوذا بعد منسى آمون فيوشيا فيهو آحاز فيهو ياقيم ، وكان هذا الملك يدفع خراجا لفرعون مصر ، فغزاه بختنصر الأول — نبوخذ نصر — ملك أشور ، وزحف إلى أورشليم سنة ٦٠٦ ق م ، وسبى بعضا من شعب يهوذا إلى بلاده أشور ، وهذا هو السبى الأول .

ثم ملك يهوذا يهوياكين بن يهوياقيم ؛ فغزاه بختنصر بعد غزوه الأول بثمانى سنين . وقد أسره مع بعض من شعب يهوذا ، ونهب الهيكل وكل ما كان فيه من التحف النفيسة والأوانى الثمينة ، وهذا هو السبى الثانى .

فقام صدقيا ملكا على يهوذا بعد يهوياقيم ، وقد غزاه بختنصر بعد غزوه الثانى بعشر سنين ، وفى هذه المرة افتتح أورشليم وأحرقها ، وكذلك أحرق الهيكل ؛ ثم سبى كل شعب يهوذا ماعدا المساكين

والضعفاء ، وهذا هو السبي الثالث والأخير ؛ وبه انتهت مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م ، وكانت مدة ملكها ٣٨٧ سنة .

واستمر بنو إسرائيل فى السبي إلى أن استولى كورش ملك فارس على أشور ، فإذن لهم أن يرجعوا إلى بلادهم بعد أن أخذ عليهم عهودا أن يبقوا فى طاعته . فرجعوا إلى أورشليم وبنوا الهيكل ، وأدّوا طقوس عبادتهم ، واستمرّوا خاضعين لملوك الفُرْس إلى أن ظهر الإسكندر المقدونى ، فانتزع أورشليم من ولاية الفرس ، وأحسن إلى بنى إسرائيل ، ودخل الهيكل وسجد لإله إسرائيل فيه ، ومنح كهنته كثيرا من الهدايا الثمينة .

فلما مات الإسكندر دخل بنو إسرائيل فى سلطة خلفائه من اليونانيين ملوك مصر ، ثم دخلوا فى سلطة خلفائه من اليونانيين ملوك سوريا السلوقيين ، وكان هذا فى عهد ملك من ملوكهم يقال له أنتيوخس الرابع فاستولى على أورشليم وولى عليها قائدا من قواده يقال له فيلكس ، وأمره أن يجبر بنى إسرائيل على أكل لحم الخنزير ، وعلى السجود لأصنامه . وأن يمنعهم من الختان وحفظ يوم السبت ، فقام بتكليفهم بكل هذا ، وقتل خلقا كثيرا ممن عصاه فيه ، وأبى إلا أن يحافظ على عهد التوراة.

وقد استمرّ بنو إسرائيل فى ظل ذلك الملك إلى أن ظهر منهم قائد قوىّ يقال له مشيا بن يوحانان الكاهن المكابى ، وهو أول من قام من المكابيين ، فانتصر لبنى إسرائيل وتولى أمرهم بعد أن طرد السلوقيين من بلادهم ، ثم قام بعده على بنى إسرائيل ابنه يهوذا فأتم طرد السلوقيين ولكنه قتل فى موقعة له معهم ، فاستولت ذريته من المكابيين على

أورشليم ، وصاروا ملوكا لها من بعده ، وإن كانت مدتها لم تهدأ من الفتن فى عهدهم ، ولاسيما فى أطراف بلادهم .

ثم ظهر الروميون بعد اليونان وطمعوا فى أورشليم ، فأرسلوا إليها جيشا عليه قائدهم بومبى ، ففتحها سنة ٤٠ ق م . ثم ولى عليها رجلا من بلاد آدوم يسمى أنتيباتر ، وكان من عظماء اليهود وأشرافهم . فملك واليا عليها إلى أن عزل سنة ٣٧ ق م . فقام مكانه ابنه هيرودس الكبير ، وأعطاه الرومان لقب ملك . فملك على أورشليم سبعا وثلاثين سنة . وكان ملكا ظالما شديدا على بنى إسرائيل . وقد قتل منهم ما لا يحصى من الخلق ، وفى عهده ولد المسيح عليه السلام . ولما مات خلفه ابنه أرخلاوس ، وسمى نفسه هيرودس أيضا ، وهو هيرودس الصغير . وكان تابعا للرومان مثل هيرودس الكبير ، وكذلك من أتى بعدهما من ملوك بنى إسرائيل .

وقد استمروا على هذا إلى نحو أربعين سنة بعد حادثة الصلب ، ثم ثاروا على الرومان وامتنعوا من تأدية الخراج إليهم ، فأرسلوا إليهم القائد وسبسيانوس ، فى جيش عظيم ، فحصلت بين الفريقين وقائع كان النصر فى أكثرها للرومان ، وكان اليهود قد حصل بينهم خلاف أدى إلى إضعاف شوكتهم ، لما قام بينهم من الحروب الأهلية بينهم ، ثم بلغ القائد وسبسيانوس ، موت نيرون قيصر الروم ، خلف ابنه تيطس على قتال بنى إسرائيل ، وذهب إلى رومية ليأخذ الملك لنفسه ، فأرسل تيطس إلى أهل أورشليم يدعوهم إلى التسليم فأبوا ، وهنالك شدد الحصار عليهم ، فاشتد عليهم الجوع ، ومات أكثرهم ، واضطروا إلى

تسليم المدينة له ، فسبى كثيرا منهم ، ولم يبق بها إلا قليل حاولوا ترميم ما تهدم منها ، وأقاموا منه جانبا عظيما ، فأمر أدريان قيصر الرومان بهدم ما جددوه من أسوار المدينة وبيوتها ، وأمر بها فسويت وزرعت لتمحى آثارها ، وبهذا انتهت دولة يهوذا ، فتفرق بنو إسرائيل فى البلاد ، ولم يقم لهم بعد هذا قائمة .

هذا هو التاريخ الصحيح لبنى إسرائيل من ابتداء ضعف دولتهم وظهور الفساد فيهم إلى نهاية دولتهم ، وقد تسلط عليهم عدد من الملوك والشعوب ، فمن ملوك أشور إلى ملوك الفُرْس ، إلى ملوك اليونان فى مصر والشام ، إلى ملوك الرومان ، وبهذا يكون الواقع فى إفسادهم فى الأرض أنهم أفسدوا فيها مرارا لا مرتين . ويكون الواقع أن شعوبا تسلطت عليهم لا شعبان . فما يريد القرآن الكريم من مرتى الإفساد اللتين خصهما من بين مرات إفسادهم ؟ ومن هما الشعبان اللذان أرادهما من بين الشعوب التى تسلطت عليهم ؟

فإذا أردنا أن نعرف ذلك وجب أن نبحث عن أشد ذلك أثرا فى بنى إسرائيل ، وإذا بحثنا عن ذلك لم نجد أشد أثرا فيهم من غزو الأشوريين لهم فى عهد بُخْتَنَصَّر الأول ، ومن غزو الرومان لهم فى عهد تيطس ، لأن الغزو الأول انتهت به دولتهم الأولى ، وحصل به سبيهم الأول إلى بابل ، إلى أن عطف عليهم كورش ملك الفُرْس فأعادهم إلى أورشليم على أن يكونوا خاضعين لملوك الفرس . ولأن الغزو الثانى انتهت به دولتهم الثانية ، ولم تكن مثل دولتهم الأولى فى قوتها وعظمتها ، ولم تقم لهم قائمة بعد انتهائها إلى ظهور الإسلام .

هذا ولا يلزم من قوله تعالى (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أولَ مرةٍ) أن يكون الذين دخلوه ثانيا هم الذين دخلوه أولا ، لأنه يكفي في تسويغ ذلك جمع اسم الأعداء لهم ، وإن كان من دخلوه ثانيا غير من دخلوه أولا . وأما قوله تعالى: (عسَى ربُّكم أن يرحمكمْ) فهو خطاب لليهود بعد نزول القرآن ، ورحمته لهم بعدل الإسلام الذي يشمل الناس جميعا ، ويستوي فيه المسلمون وغيرهم من اليهود وكل شعوب العالم .

وقد وصف القرآن الحكم الاستعماري لبني إسرائيل بالفساد ، وإن كانوا قد استحقوه بفسادهم ، فلم يخرج في هذا أيضا عن نظرته إلى هذا الحكم .

الهجرة إلى المدينة والحكم الاستعمارى

إذا كان الشيء بالشيء يذكر ؛ فإن الكلام فى موضوع — القرآن والحكم الاستعمارى — يجرنا إلى الكلام فى موضوع — الهجرة إلى المدينة والحكم الاستعمارى - وإلى ما بعده مما سيأتى الكلام فيه ، وكلامنا فى موضوع - الهجرة إلى المدينة والحكم الاستعمارى - يجعلنا نفهم الهجرة النبوية من ناحيتها السياسية فهما جديدا ، ولا شيء فى أن يكون للهجرة النبوية ناحية سياسية توحى بهذا الفهم الجديد ، لأن الإسلام دين وسياسة معا .

فقد مضى على الإسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة يكافح حكما أجنبيا كفاحا سياسيا سلميا ، ويحاول أن ينال منه إنصافا ، وأن يعيش فى ظله آمنا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحاول التخلص من هذا الحكم الأجنبى الظالم ، ويعرض نفسه على القبائل العربية قبيلة بعد قبيلة ، لعله يجد منها قبيلة تخلصه من هذا الحكم ، وينال بها ما ينشده من الحرية الدينية والسياسية لهذا الدين وأهله ؛ ولما لم يجد من القبائل العربية من يساعده على الوصول إلى هذه الغاية ، جمع أصحابه من المسلمين وقال لهم : « تفرقوا فى الأرض ، فإن الله سيجمعكم » فسألوه عن الوجهة ، فأشار إلى أرض الحبشة ، فعند ذلك تجهز ناس من المسلمين للهجرة إلى هذه الأرض ، وهذه هى الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ، وكان عدد أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة .

وبقى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة مع من بقى فيها من المسلمين ، ولم يهاجر مع من هاجر منهم إلى أرض الحبشة ، لأنه كان يبغى لدينه وأهله الحرية الدينية والسياسية معا ، وهذه الهجرة إلى أرض الحبشة إنما تحقق الحرية الدينية ، ولا تحقق الحرية السياسية ، وكانت الحبشة فى ذلك الوقت تدين بالنصرانية ، وكان لقب ملكها النجاشى ، فكان من هاجر إليه من المسلمين يعيش فى حكمه ، وإن كان يتمتع فيه بحريته الدينية ، فلم يرض النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه أن يعيش فى هذا الحكم ؛ لأنه يريد حكما خالصا للمسلمين ، يكون فيه هو الرئيس الأعلى لهم ، ويكون المسلمون تابعين له وحده لا لغيره ، على أن من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة كان يكتفى بينهم بدينه ؛ ولا يفكر فى دعوة أحد من أهل الحبشة إليه ، لئلا يثير عداءهم له ، وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليرضى لنفسه فى أرض الحبشة بذلك ، لأنه مأمور بتبليغ رسالته لهم ولغيرهم ، ولهذا كان يبغى لنفسه وللمسلمين الحرية الدينية والسياسية معا ، ليقوم بتبليغ رسالته فى ظلّ حكم إسلامى خالص ، ولا يكون تابعا سياسيا لحكم أجنبى لا يرتاح لتبليغ رسالته .

ولم يمكث أولئك المهاجرون بالحبشة إلا ثلاثة أشهر ، ثم رجعوا منها إلى مكة بعدها ، لأنهم لم تتيسر لهم الإقامة فيها ، وقد ساءت قريشا هجرتهم ، فما نعمت فى دخولهم مكة بعد رجوعهم . ولم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له مجيرا من أشرافها ، لأنها عدّت هجرتهم خيانة لها ، وطعنا فى حكمها ، فأخرجتهم من جنسيتها ، كما تخرج الحكومات الآن

من جنسيتها من يخرج عليها ، ويفـــرّ من حكمها إلى بلاد أخرى ، فلا يكون له حق الإقامة ثانيا فى بلادها ، إلا إذا عفت عنه بوسيلة تراها .

ثم كان أن اشتدت قريش فى أمر المسلمين ، وأجمعت على منابذة بنى هاشم وبنى المطّلب ولدَى عبدمناف وإخراجهم من مكة ، فانحازوا إلى شِعب أبى طالب ، مسلمهم وكافرهم ، ما عدا أبا لهب لأنه كان مع قريش ، وانخذل عنهم بنو عمّيهم عبد شمس ، ونوفل ، ابنى عبد مناف ، فجهدوا فى ذلك الشعب حتى كانوا يأكلون أوراق الشجر ، لأن قريشا قاطعتهم مقاطعة تامة .

وهنا رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يأمر جميع المسلمين أن يهاجروا ثانيا للحبشة ، حتى يساعد بعضهم بعضا على الاغتراب ، ولعله يخفف بذلك شيئا من شدّة قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ، ولاسيّما من بقى على الشرك منهم ، لأنهم لاذنب لهم فيما يصيبهم بسبب المسلمين ، فهاجر معظم المسلمين إلى الحبشة ، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلا ، وثمان عشرة امرأة ، ولم يفكر النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يهاجر معهم ، كما لم يفكر فى هجرتهم الأولى ، لأنه - كما سبق - يطلب الحرية الدينية والسياسية للمسلمين ، ولا يكتفى بالحرية الدينية التى يجدونها فى الحبشة ، ولايجدون فيها الحرية السياسية ، لأنهم - كما سبق - كانوا فى الحبشة يعيشون أيضا فى ظل حكم أجنبى ، وكانت حريتهم الدينية فيها مقيدة بعض التقييد ، فلم يكن لهم حق الدعوة فيهـــا إلى دينهم ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليرضى لنفسه بمثل هـذا التقييد ، لأن شأنه

ليس كشأن أولئك المهاجرين .

ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يطلب للمسلمين الحرية الدينية والسياسية حتى وصل إلى هذا بالهجرة إلى المدينة ، وكان أهلها قد بايعوه لربه أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا ، ولنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . وهنا وجد النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا هاجر إلى المدينة فسيهاجر إلى قوم دانوا بالإسلام ، وسيكون هو رئيسهم الديني والسياسي ، فتظهر بذلك الدولة الإسلامية ، ويعيش بها المسلمون وهم متمتعون بالحرية الدينية والسياسية ، لا يتحكم فيهم أجنبي ولا يحاول فتنتهم في دينهم . فأمر المسلمين أن يهاجروا جميعا إلى المدينة ، فهاجر كثير منهم قبله إليها ، وأشاعوا الإسلام بين أهلها ، تمهيداً لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، وليجد الإسلام إذا هاجر قد غلب عليهم ، فيكون الحكم فيها للإسلام والمسلمين ، وتكون الدولة الإسلامية الحرة التي كان يبغيها كل هذه المدة لهم ، ولم يرض أن يهاجر للحبشة من أجلها ، فلما تهيأ له هذا كله هاجر إلى المدينة ، وتم له فيها ما أراده المسلمين من الحرية الدينية والسياسية ، ومن إنشاء الدولة التي يتمتعون فيها بهذه الحرية .

ولهذا اتخذ المسلمون هذه الهجرة مبدأ لتاريخهم السياسي ، وآثروا حادثتها بهذا على غيرها من الحوادث الإسلامية الكبرى ، لأن هذا التاريخ سياسي لا ديني ، ولهذا لم يفكر المسلمون فيه إلا في خلافة عمر ابن الخطاب ، بعد أن تكاملت الدولة الإسلامية ، واستقر أمرها بين المسلمين . واحتاجوا فيها إلى تاريخ سياسي يرجعون إليه في تعيين أزمان

حوادثهم وأحكام دولتهم . وما يدخل فيها من أمورهم الدينية والسياسية ، فلم يجدوا أنسب إلى هـــذا من هذه الحادثة التى تمّ فيها إنشاء الدولة الإسلامية ، وظفر فيها المسلمون بنعمة الحرية ، وهى أسمى نعمة فى هذه الدنيا .

ولهذا كان للهجرة إلى المدينة شأنها فى الإسلام ، ولم يكن للهجرة إلى الحبشة مثل هذا الشأن ، لأن المسلمين لم ينالوا بها شيئا من الحرية السياسية ، ولم ينالوا بها الحرية الدينية كاملة ، وإنما نالوا الحريتين كاملتين بالهجرة إلى المدينة ، فنزل فيها القرآن الكريم ينوّه بشأنها ، ويرغب فيها ، ويعد بالأجر العظيم عليها . ومن هذا قوله فى الآية ١٠٠ من سورة النساء : (ومَن يهاجرْ فى سبيلِ الله يجدْ فى الأرض ، مراغما كثيراً وسعةً ومَن يخرجْ من بيتهِ مهاجراً إلى الله ورسـوله ثم يدركه الموت فقدْ وقعَ أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما) وكذلك قوله فى الآية ١١٨ من ســـورة البقرة (إنّ الذين آمنو والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيلِ الله ، أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيمٌ) .

وقد جعل الإسـلام لهذه الهجرة فى ذلك الوقت منزلة تلى منزلة الإيمان بالله ، فأوجبها فوراً على جميع المسلمين فى مكة وغيرها من البلادالعربية ، ليتخلصوا بها من الحكم الأجنبى فى بلادالشرك ، ويظفروا بحريتهم الدينية والسياسية فى دولتهم الإسلامية الجديدة ، ويساعدوا على تقويتها ونهوضها فى وسط قوى الشرك التى تحيط بها من كل جانب. وكان مهاجرو الحبشة يدخلون فى هذا الوجوب ، ولكنه لم يكن على

الفور كما كان على المسلمين فى مكة والبلاد العربية ، لأنهم كانوا فى هجرة أيضاً ، وكانت لهم ظروف تقتضى التساهل فى شأنهم ، وتوسع لهم فى الهجرة إلى أن تتهيأ لهم .

فهاجر جميع المسلمين من مكة إلا قليلا منهم ، وكان من هذا القليل طائفة عجزت عن الهجرة إلى المدينة من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فبقوا فى مكة يقاسون من حكمها الأجنبى ما كان يقاسيه إخوانهم المهاجرون ، فأمر المسلمون فى المدينة بالقتال فى سبيل تخليصهم من ذلك الحكم الأجنبى الظالم ، وفى هذا يقول الله تعالى فى الآيتين ٧٤ ؛ ٧٥ من سورة النساء : (فليقاتلْ فى سبيل الله الذينَ يشرونَ الحياةَ الدُّنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجالِ والنساء والولدانِ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها(١) واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) فقاتل المسلمون قريشاً فى سبيل تخليص أولئك المستضعفين حتى خلصوهم من ذلك الحكم الأجنبى الظالم ؛ وحتى استولوا أخيراً على مكة ليقضوا على ذلك الفساد والظلم .

وكان من ذلك القليل الذى بقى بمكة طائفة أخرى لم تكن مستضعفة ، ولكنها عزّ عليها أن تفارق وطنها وأهلها وأموالها ، ولم تحتمل نفسها أن تكابد الاغتراب عن الوطن ؛ فرضيت بذل الاستعباد لذلك

---

(١) يعنون مكة وقريشاً أهلها .

الحكم الأجنبي ؛ وآثرته على عزّ الحرية فى الوطن الإسلامى ، وفى الدولة الإسلامية الجديدة ؛ فلم يرض المسلمون عن بقاء هذه الطائفة بمكة ؛ وقطعوا صلتهم السياسية بها . وعاملوها كما يعاملون أعداءهم من المشركين ، لأن بقاءها فى مكة كان فيه تكثير لعدد أعدائهم . وتقليل من عددهم . على أن أمرها لم يقف عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى مشاركتها لأعدائهم فى قتالهم بإكراههم لها عليه أو بغيره من الوسائل .

فقد خرج نفر منها فى غزوة بدر مع المشركين ، فقتلوا فيها مع من قتل منهم . ونزل فيهم قوله تعالى فى الآية ـ ٩٧ من سورة النساء : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيمَ كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ؟ فهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) فاعتذروا للملائكة بأنهم كانوا عاجزين فى أرض مكة ، فردّ الملائكة عليهم بأن أرض الله ـ يعنون أرض المدينة ـ كانت واسعة ، فكان عليهم أن يهاجروا فيها ولا يبقوا بين المشركين ، فيتحكموا بهم ويخرجوهم إلى قتال إخوانهم . ثم استثنى فى الآية التالية بعض من بقى فى مكة فقال « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم وكان الله عفواً غفوراً) .

وقد أسر بعض أولئك المسلمين الذين خرجوا فى بدر مع المشركين فأخذ منهم الفداء كما أخذ من المشركين الذين أسروا معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى فى الآيتين ٧٠ ، ٧١ من سورة الأنفال : (يأيها النبى قل

لمن فى أيديكم من الأسرى: إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفورٌ رحيم ، وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليمٌ حكيمٌ) .

وكان من أثر قطع الصلة السياسية بين من بقى فى مكة من المسلمين ومن هاجر منهم إلى المدينة أن قطع التوارث بينهم ، وجعل التوارث بالولاء بين المهاجرين والأنصار ، فكانوا يتوارثون دون أقرباتهم وذوى أرحامهم . وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر. إلى أن فتحت مكة وانقطعت الهجرة ، فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا ، وفى هذا نزل قوله تعالى فى الآية ٧٢ من سورة الأنفال : (إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آوَوا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء ، حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ والله بما تعملون بصير) .

والآية ظاهرة فى أن أصل الإيمان ثابت لأولئك الذين بقوا فى مكة من المسلمين ولم يهاجروا ، وكذلك الآية الواقعة بعدها: (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا : أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزقٌ كريمٌ) لأنها تفيد أن الذين آمنوا ولم يهاجروا مؤمنون أيضا وإن لم يكن إيمانهم حقاً : أى كاملا ، ليوافق قوله فى الآية السابقة :(وإن استنصركم فى الدين فعليكم النصر) لأنها أوجبت على المهاجرين نصرتهم إن استنصروهم فى الدين : أى لأجل

أنهم إخوانهم فى الدين ، وأما قوله تعالى فى آية النساء السابقة : (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) فهو لا يدل على نفى الإيمان عنهم . كما لا يدل قوله قبل هذا فى القاتل المتعمد من تلك السورة : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها . .) بل هذه أشد للتصريح فيها بالخلود فى جهنم ، وهو يحتاج عند من يرى إيمان القاتل المتعمد إلى الحمل على المكث الطويل ، ليكون هناك فرق بين خلود المؤمن العاصى فى جهنم وخلود الكافر فيها .

وكذلك قوله تعالى فى الآيتين ٨٨ ، ٨٩ - من سورة النساء : (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله ؟! ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) على القول بأنهما نزلا فيمن بقوا من المسلمين بمكة ولم يهاجروا . أو فى قوم من قريش قدموا المدينة وأسلموا ، ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين . فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنا على الذى فارقناك عليه من الإيمان ، ولكنا اجتوينا المدينة ، واشتقنا إلى أرضنا . »

ثم إنهم خرجوا فى تجارة إلى الشام . فبلغ ذلك المسلمين . فقال بعضهم : نخرج إليهم ونقتلهم ونأخذ ما معهم . لأنهم رغبوا عن ديننا .

وقالت طائفة منهم : كيف تقتلون قوما على دينكم وإن لم يذروا ديارهم ؟ . . . ، وكان هذا بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ساكت لا ينهى أحدا من الفريقين ، فنزلت الآيتان فى نهى الفريق الثانى عن الذب عنهم . وأمر المؤمنين جميعا أن يكونوا على منهاج واحد فى التباين لهم ، والتبرؤ منهم ، ثم وصفهم بما يفيد نفاقهم وكفرهم . وقد أخذ بهذا جمهور المفسرين ، وإنى أرى أن هذا نفاق وكفر سياسيان لا دينيان ، لأن هؤلاء الناس لا يصح تكفيرهم دينيا ما داموا قد كتبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنهم على الذى فارقوه عليه من الإيمان ، وتركهم للهجرة إنما يقتضى عصيانهم لا كفرهم .

ولكن قد يقال : كيف يأمر الله تعالى بقتلهم ، والمنافقون لا يصح قتلهم ولا قتالهم ؟... وإذا كان الجهاد قد شرع أخيرا معهم . فهو جهاد لا يصل إلى حد القتال ، وإنما يكون بالغلظة عليهم ، وبالتشديد فى أمرهم ، ولا يصح مجاوزة هذا إلى قتلهم أو قتالهم .

والجواب أن هذا كان خاصاً بمنافقى المدينة ، لأنهم كانوا من رعايا الدولة الإسلامية ، ولا يصح لدولة أن تقاتل رعاياها فيما يتعلق بعقائدهم ما داموا مسالمين لها ، أما منافقو مكة فكانوا رعايا حكم أجنبى ، فيجب أن يعطوا حكم رعاياه من المشركين ؛ لأنهم كانوا يكثرون سوادهم ، ويمالئونهم على المسلمين إلى حد القتال معهم .

ويجب أن ننبه بعد هذا كله إلى أن أولئك المسلمين إنما أخذوا بإيثارهم للحكم الأجنبى على الحكم الإسلامى . لأنه كان محاربا للدولة الإسلامية الشرعية ، فيجب أن يفرق بينه وبين حكم أجنبى مسالم لهذه الدولة ،

ويجب أن يفهم أن الهجرة إلى المدينة إنما كانت واجبة على المسلمين الموجودين بذلك الحكم الأجنبي المحارب فى مكة أو غيرها ، بخلاف الموجودين منهم فى الحكم الأجنبي المسالم ، ولهذا استثناهم الله بعد الآيتين السابقتين فى سورة النساء . فقال : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ...) . فهؤلاء لا مؤاخذة عليهم ، لأن الإسلام لا يصيبه ضرر منهم .

تنزيه الإسلام

عن مطامع الحكم الاستعمارى

ثبت مما سبق أن الإسلام ينظر إلى الحكم الاستعمارى على أنه حكم بغيض ، وثبت أن هذه نظرته إليه ولو كان عقابا من الله تعالى فى الدنيا لقوم على إفسادهم فى أرضهم ، كما عاقب بنى إسرائيل على إفسادهم فى الأرض المقدسة بتسليط الأجانب فيهم . لا على أن تسليطهم عليهم لإصلاح أحوالهم ، لأنهم كانوا شعوبا وثنيين جبّارين يفسدون ولا يصلحون ، بل كان تسليطهم عليهم لإذلالهم وتخريب بلادهم ، ليكون عقابا لهم على إفسادهم فى تلك الأرض ، ولو كان تسليطهم لإصلاح أحوالهم لكان نعمة لهم لا عقابا عليهم . وبهذا تكون نظرته إليه فى هذه الحالة على أنه حكم طاغ ظالم ، ولا يغير منها أنه عقاب من الله تعالى على من ابتلاهم به .

فهل للإسلام مطمع فى هذا الحكم الاستعمارى البغيض؟ . . . وهل يرضى الإسلام أن يتسلط المسلمون على غيرهم الشهوة الحكم ، فيكون حكمهم لهم حكما استعماريا بغيضا ، باعثه شهوة التسلط على الأمم الضعيفة ، ليزيد فى ضعفها وفسادها . حتى تنقرض على توالى الزمن ، وتفنى جيلا بعد جيل ، فتحل الأمم المتسلطة بدلها فى أرضها ، وتستأثر وحدها بخيراتها ؟ ! !

والجواب على هذا أن الحكم الإسلامى فى أصله لا يكون فى يوم من

الأيام حكما استعماريا بغيضا ، وأن الإسلام لا يرضى أن يتسلط المسلمون على غيرهم لشهوة الحكم . وهذا هو اختصار نظرته فى ذلك حين كان حكما إسلاميا صحيحا ، وحين كان له وحده توجيهه للحكم ، وحين لم يدخل فى أمره شىء من شهوة التسلط فى الناس كما دخل بعد حكم النبوة والخلافة الرشيدة ، حين اغتصب بنوا أمية الحكم الإسلامى اغتصابا من المسلمين ، فحكموهم حكما كسروياً قيصرياً . يتوارثه الحاكمون بعضهم عن بعض ، ويستأثرون به دون المسلمين شهوة فى الحكم . فانحرف بهذه الشهوة عن منهجه الإسلامى الصحيح ، وصار بحيث لا يحسب بشىء على الإسلام .

لقد مرّ الإسلام على طورين فى ذلك العهد الذى يحسب عليه : وهو عهد النبوّة والخلافة الرشيدة . وكانت مدته ثلاثا وخمسين سنة : ثلاث وعشرون منها فى عهد النبوة . وثلاثون منها فى عهد الخلافة الرشيدة .

فأما الطور الأول فكان الإسلام فيه بمكة فى ظل حكومة قريش . وكانت تتألف من رؤساء بطونها ، وكان لكل رئيس منهم وظيفته فى هذه الحكومة ، فلم تتطلع دعوة الإسلام فى هذا الطور إلى شىء من ذلك الحكم ، وإنما كانت دعوة دينية خالصة . تدعو إلى الإصلاح الدينى والدنيوى دعوة بريئة لا تطمع فى شىء من أمور الدنيا . وقد أعيت قريشا براءة هذه الدعوة فأرادت أن تنحرف بها نحو هذه المطامع الدنيوية لتنتهى من أمرها . ولعلها ظنت بها السوء ، وأنها تقصد إلى هذه المطامع فعرضتها عليها . لأن كل شىء كان يهون عليها ، إلا الطعنَ فى دينها .

وإلا السب فى آلهتها .

يروى ابن هشام أن أشراف قريش اجتمعوا بعد غروب شمس يوم عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك فأتهم ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا — وهو يظن أنّ قد بدا لهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا ، يحبّ رشدهم ، ويعزّ عليه عنتهم — حتى جلس إليهم .

فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدّين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك — أو كما قالوا له — فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئيًّا تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا — فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطبّ لك حتى نبرئك أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا

منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ـ أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة صريحة . . . إنه لا يطلب بدعوته مالا ولا شرفا ولا حكما ولا ملكا ، وإنما هى دعوة إصلاح خالصة ، فلا يشوبها شىء من مطامع الدنيا ، وليكن لرؤساء قريش مالهم وشرفهم وحكمهم ، لأنه لا يبغى منهم شيئا من ذلك ، وإنما يبغى أن يستجيبوا لدعوته فقط .

والحقيقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يكن يبغى فى هذا الطور إلا حماية الدعوة ممن يحاول القضاء عليها ، ويعمل على صرف الناس عنها ، ويفتن من يؤمن بها منهم بكل صنوف التعذيب ، ويشردهم عن مكة ليعيشوا بعيداً عنها فى دار الغربة . وهذا حق طبيعى لكل دعوة أن تسعى فى حمايتها من أعدائها ، وليس فيه شىء يؤخذ عليه من مطامع الدنيا .

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم حماية بنى عامر لدعوته حينما رآهم يطلبون لها ثمنا من الدنيا ، وكان رجل منهم يقال له بَيْحرة ابن فِراس رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرض دعوته على القبائل فى موسم من مواسم الحج ، ويطلب من كل قبيلة حمايتها لها ، فراعه فصاحة لسانه وقوة جنانه ورباطة جأشه . فقال : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب . ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من

خالفك ، أيكون لنا الأمر بعدك؟.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأمر بيد الله يضعه حيث يشاء . فقال له بيجرة : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟... لا حاجة لنا بأمرك .

وقد مكث هذا الطور بمكة ثلاث عشرة سنة ، إلى أن وجد صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة من قبل حماية دعوته لوجه الله تعالى ، لا لمطمع من مطامع الدنيا ، فهاجر هو ومن آمن به من أهل مكة إليها .

وأما الطور الثانى فيبدأ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم هو ومن آمن به من أهل مكة إلى المدينة ، وكان قد عقد معاهدة بينه وبين وفد أهلها على حماية دعوته ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، فلم يطلب بمساعدته لهم حكما فيهم ولا نحوه من مطامع الدنيا ، ولم يطلبوا بمعاهدتهم له حكما أيضاً ، وإنما طلبوا جزاء الآخرة لا الدنيا ، فكانت معاهدة بريئة كل البراءة من الجانبين معا ، لم يقصدوا بها عدوانا على غيرهم ، ولم يقصدوا بها إقامة ملك لهم ، لأن الحكم يجيء فى الإسلام تبعا لا قصدا ، وذلك حين تتألف منه جماعة تحتاج إلى حكم يدبر أمورها ، ويفصل فى منازعاتها ، وينظم وسائل الدفاع عنها .

وقد صار للإسلام فى هذا الطور الثانى قوة من مهاجرى مكة وأهل المدينة ، وكانت قوة دفاعية لا تقصد الاعتداء على أحد ، وإنما تقصد حماية الدعوة فقط ، فلا تعتدى على من لم يعتد عليها ، وإنما تقابل

العدوان بالعدوان ، وهو حق من حقوق بنى الإنسان ، وبه قامت الحروب بين النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وبين قريش وغيرهم ، لأن قريشا بدأت فآذنت أهل المدينة بالحرب لإيوائهم من هاجر منها إليهم ، ثم منعت بعضا من المسلمين من الهجرة وحبستهم وعذبتهم ، فقابلها النبي صلى الله عليه وسلم حربا بحرب ، وكان يحضّ قريشا وحدها بحربه ، فلما تمالأ مشركو العرب جميعا على المسلمين أمرَ بقتالهم أيضا ، وكان كله قتالا لحماية الدعوة ، ولم يكن قتالا للطمع فى إقامة حكم إسلامى على غير المسلمين ، وهو الحكم الأجنبي منه لغير أهله .

وكذلك كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع غير العرب من الفرس والروم ، لأنه ابتدأ أمره معهما بكتاب يدعوهم إلى الإسلام بالسلم ، ولا يطلب فيه شيئا من ملكهم ، ولا يؤذنهم فيه بحرب إن لم يسلموا ، وإنما هو كتاب لتبليغ الدعوة فقط ، ومن حقه أن يبلغ دعوته لكل من يمكنه أن يبلغها له ، ومن شاء فليؤمن بها بعد التبليغ ومن شاء فليكفر . ومثل هذا لا يصح أن يثير غضبا ، ومن باب أولى لا يصح أن يثير قتالا .

ولكن جواب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس كان أن بعث إلى عامله على اليمن أن يوجه إلى المدينة من يأتيه بصاحب الكتاب ليعاقبه عليه ، وقد مزّقه بعد قراءته له ، فمزق الله ملكه بتسليط المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين عليه .

وكذلك كان شأن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الروم ، لأنه بعث إليهم وإلى بعض أمراء الغسّانيين التابعين لهم ، فقتل بعض

هؤلاء الأمراء رسول النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، وبهذا قامت الحرب بين المسلمين والروم . وكان من نتيجتها أن انتزع المسلمون منهم بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب إلى المحيط الأخضر - الأطلنطى - فخلصوها من ذلك الحكم الاستعمارى الرومى الظالم ، وكان كثير من أهلها يساعدون المسلمين على الروم ليتخلصوا من حكمهم ، ولأنهم كانوا يرون المسلمين أقرب إليهم جنسا منهم .

وكان كل ماحصل من ذلك للفرس والروم ، مما اضطر إليه المسلمون اضطرارا ، ولم يكونوا يقصدون إليه قصداً ، لأن دعوة الإسلام لم تكن لفتح البلاد ، وإنما كانت لفتح القلوب ، ولهذا كانت وسيلتها سلمية من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، لأن هذه الوسيلة هى التى تفتح القلوب . ولم تعتمد فى شىء ماعلى قوة السيف التى تفتح بها البلاد ، اللهم إلا فى الدفاع عن نفسها كما سبق .

وحينئذ لا يكون فى الإســـلام خطة هجوم لفتح البلاد بالقوة ، وإدخال الأمم الضعيفة فى سلطانه لحكمها بالقهر والغلبة ، وإذا لم يكن فى الإسلام هذا لم يكن فيه مطمع فى حكم استعمارى ، لأن الحكم الاستعمارى هو تسلط شعب قوى على شعب ضعيف بالقهر والغلبة . وكذلك حاله إذا اعتدى على أهله فانتصروا على المعتدين عليهم . فلا يلزم أن يحكموا هؤلاء المعتدين بالقهر والغلبة بعد هزيمتهم ، بل يجب الكف عنهم وترك بلادهم لهم إذا ركنوا إلى السلم ، كما قال تعالى فى الآية ٦١ من سورة الأنفال : (وإن جنحُوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم) ولو كان له مطمع فى الحكم لكانت هزيمتهم فرصة للمضى فى حربهم إلى الاستيلاء على بلادهم .

تسوية الإسلام

بين المسلمين ومواطنيهم

جاء الإسلام دينا مرنا صالحا لكل زمان ومكان ، لأن أحكامه كلية يمكن الاجتهاد فيها ، فتتسع دائرتها . وتتشعب فروعها ، ولا تقف عند حد معين يضيق به أهله . ومن هذه الأحكام عزائم يصلح بها بعض الناس ، وتصلح لبعض الأزمان . ومنها رخص يصلح بها بعض آخر من الناس ، وتصلح لبعض آخر من الأزمان ، ولهذا ورد فى بعض الأحاديث أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه . فلا يصح أن نأخذ فيما نريد من تشريعات إسلامية حديثة بعزائمه وحدها ، ولا أن نقف فيها عند مذهب معين من المذاهب الإسلامية ، لأن هذا إذا أمكن فى أزمنة كنا نرضى فيها بالجمود . وأغلقنا فيها باب الاجتهاد ومضى علينا فى هذا نحو ألف سنة ؛ ألفنا فيها الجمود ، وضقنا بالتجديد . فإنه لا يصلح فى زمننا بعد أن نفضنا عنا غبار الماضى ، وثرنا على ذلك الجمود الذى كنا نألفه ، وسرنا خطوات واسعة فى طريق التجديد .

فيجب أن نتخلص من كل أثر للتزمت الدينى الذى وقعنا فيه بسبب رضوخنا لذلك الجمود الطويل . وأن نعيد للإسلام سماحته ومرونته بعد أن أتى جمودنا عليهما فى ذلك الزمن المديد . لنكون صادقين حقا فيما ننادى به ونكرره الآن : من أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان .

ولا يكون هذا منا كلاما يلقى فى الهواء ، فإذا مضينا فى تنفيذه وضعنا فى سبيله العقبات ، ولم يمكننا التخلص مما كنا فيه من تزمت وجمود .

وكان من مرونة الإسلام وسماحته أنه يقبل فى حكمه من لا يدين به ، وهم أهل الذمة الذين يعيشون مع المسلمين فى وطن واحد ، فإن الإسلام يقبلهم فى حكمه ، ولا تضيق حكومته بهم كما تضيق الحكومات الطائفية من دينية ومدنية ، لأنه لا يفرق فى حكمه بين الأديان والأجناس ، بل يشمل عدله الأحمر والأسود وغيرهما من الأجناس البشرية . كما يشمل كل دين من الأديان التى يدين الناس بها فى الدنيا ، لأنه دين عالمى لا يخص جنسا من الأجناس ، فيجب أن تكون جميع الأجناس فيه على السواء ، ولأنه لا إكراه فيه على الإيمان به ، فيجب أن يقبل فى حكمه المخالفين له ، ويجب أن يرعاهم كما يرعى من يدين به ، ولا شك أن حسن معاملته لهم مما يرغبهم فيه ، ويجعلهم يدينون به طوعا ، ويؤثرونه على ما نشأوا عليه من أديانهم ، أما سوء معاملتهم فإنها تكرههم فيه ، وتثير فى نفوسهم التعصب عليه ، فيعميهم التعصب عن محاسنه ، ويصرفهم الحقد عن الإيمان به .

وقد وضع الإسلام قاعدة عظيمة لمعاملة أهل الذمة ، تلائم مرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وتوافق سماحته وسعة حكومته ، وهذه القاعدة هى أن لأهل الذمة فى الحكومة الإسلامية ما للمسلمين ، وعليهم فيها ما عليهم . فلهم فيها حقوق المواطن فى وطنه ، وعليهم فيها واجبات الوطن على أهله ، ليكون شأنهم فى هذا كشأن المسلمين ، ولا يشعروا بأنهم يعيشون غرباء فى وطنهم ، وهذا على وفق ما جاء به الإسلام من أن الدين لله

والوطن لجميع الناس ، ليعيشوا فيه إخوانا فى الدنيا على اختلاف أديانهم ؛ ويترك أمر حسابهم على أديانهم لله وحده فى آخرتهم ، فشأن الدنيا يخالف شأن الآخرة ، لأنها ليست محل الثواب والعقاب على العقيدة ، وإنما محلهما الآخرة وحدها .

ولا شك أن هذه القاعدة العظيمة يجب أن تراعى فى وضع الدساتير الحديثة للحكومة الإسلامية ، فيكون الأصل فى هذه الدساتير أن يعامل فيها أهل الذمة كما يعامل المسلمون ، وأن يكون شأنهم فى حقوقها وواجباتها كشأنهم ، حتى لا يفترقوا فيها إلا فى الشؤون الدينية المحضة ، أما الشؤون الدنيوية فيجب أن يكونوا فيها سواء ، لأنها لا شأن لها بالدين ، وقد يكون فى أهل الذمة من هو أدرى بها من المسلمين .

وهذا يعطى أهل الذمة حق المشاركة فى دخول المجالس النيابية التى تمثل السلطة التشريعية فى الدساتير الحديثة . وهى إحدى السلطات الثلاث : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية . فيكون فى هذه المجالس النيابية من أهل الذمة من يمثلهم فيها ، لأنهم من أبناء الوطن الذى ولدوا فيه ، ولهم فيه حقوق ومصالح دنيوية مثل إخوانهم من المسلمين . فيجب أن يكون لهم رأى بجانب رأيهم . ليشعروا بأن لهم فى هذا الوطن مثل ما لهم ، ويدينوا بالإخلاص له كما يدينون ، ويشاركوا فى الدفاع عنه كما يدافعون ، ويعملون لرفعته كما يعملون .

وهذه رخصة فى الإسلام يجب تقديرها على من يبحث من علماء المسلمين الآن فى موضوع الدستور الإسلامى . ولكنى رأيت

فى رسالة صغيرة للأستاذ أبى الأعلى المودودى الباكستانى : « نحو الدستور الإسلامى » انحرافاً عن هذه الرخصة ، واتجاها نحو الأخذ بالعزيمة والتشدد فى هذا الموضوع ، وقد جعله هذا يقلب القاعدة السابقة فى معاملة أهل الذمة ، ويجعل الأصل فى معاملتهم على خلافها ، مع أنها هى الأصل فى معاملة أهل الذمة ، وما عداها شذوذ لا يثبت إلا بنص معين ؛ ليمكن استثناؤه من هذا الأصل ، كما فى الأمور الدينية المحضة .

فقد ذكر الأستاذ المودودى فى هذه الرسالة أن الإسلام ألقى على كواهل السكان المسلمين تبعة حمل نظامه كله ، فإنهم هم الذين يسلمون بصدق هذا النظام فهو ينفذ فيهم قانونه كله ، ويلزمهم الامتثال لجميع أحكامه الدينية والخلقية والمدنية والسياسية ، ويفرض عليهم القيام بجميع واجباته وفرائضه ، ويطالبهم بكل نوع من التضحية فى الدفاع عن دولته ثم إياهم يخوّل الحق فى أن يختاروا أولى الأمر لهذه الدولة ، ويشتركوا فى البرلمان - مجلس الشورى - المدبّر لشؤونها ، وأكبر دليل على هذه القاعدة أننا لانجد فى عهد النبوّة ولا فى عهد الخلافة الرشيدة مثلا يدل على أن أحدا من أهل الذمة اختير عضواً فى مجلس الشورى ، أو سمح له بأن يدلى برأيه فى اختيار الخليفة ، مع أن عهد النبى والخلافة الرشيدة لم يكن خاليا من أهل الذمة ، وقد بلغوا عشرات الملايين فى عهد الخلافة الرشيدة ، فلو كان الاشتراك فى ذلك من حقهم لمسّا بخسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا الحق ، ولابخسهم الخلفاء الراشدون شيئاً منه أيضا .

ثم ذكر أن على من يجد فى نفسه شيئا من هذا أن ينظر نظرة فيما تعامل به الآن الدولة الحاملة لفكرة من الفكر من لا يؤمن بها ، وفيما تعامل به الدول القومية من يكون فيها من الأقليات القومية ، فإنها إما أن تحاول استئصال هذه الأقليات ، أو تحاول جعلها منبوذة بينها ، أما الإسلام فإنه وضع بالعدل التام حداً بين من يؤمنون بنظامه ومن لا يؤمنون به ، فالذين يؤمنون به يلزمهم التقيد بكل أصوله ، ويلق عليهم التبعة فى تسيير نظام الدولة وفقا لهذه الأصول . أما الذين لا يؤمنون بهذه الأصول فلا يلزمهم اتباعها إلا إلى حد لا بد منه للمحافظة على نظام البلاد ، ويضمن لهم المحافظة على حقوقهم المدنية والإنسانية ، بعد إعفائهم من تبعة تسيير نظام الدولة ، فيضمن لهم المحافظة على دياناتهم وأموالهم وأعراضهم ، ويعطيهم فى قوانين البلاد الداخلية مثل ما للمسلمين من الحقوق سواء بسواء ، ويفتح لهم جميع أبواب الوظائف فى الدولة إلا المناصب الرئيسية ، ويجعل نصيبهم من الحرية المدنية مثل نصيب المسلمين ، ولا يجيز أن يعاملوا فى الشؤون الاقتصادية بما لا يعامل به المسلمون أنفسهم .

فالأستاذ المودودى فى ذلك ينسى أن الأصل فى أهل الذمة أن يكون لهم من الحقوق مثل ماللمسلمين ، فلا يكفى فى حرمانهم من حق الدخول فى مجلس الشورى عدم اشتراكهم فى هذا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين بعده . بل لا بد من نص يدل على أنهم ليس لهم هذا الحق ، ليمكن استثناؤه من ذلك الأصل . وقد كان الدخول فى الشورى على ذلك العهد مقصوراً على أهل المدينة وحدهم ،

فهل يصح الآن أن نقصره عليهم دون غيرهم من المسلمين ، كما يحاول الأستاذ المودودى أن يقصره الآن على المسلمين وحدهم ، لأنه كان فى ذلك العهد مقصوراً عليهم ؟ ... اللهم لا . فيجب أن يكون شأن أهل الذمة فى ذلك كشأن المسلمين من غير أهل المدينة سواء بسواء .

على أننا يمكننا أن نذكر أمثلة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم اجتمع فيها المسلمون وغيرهم على وجه من الوجوه ، فكان لغير المسلمين من حق الدخول فى الشورى مثل ما للمسلمين ، وهذا فى الأمور التى يصح لهم الدخول فيها من الأمور الدنيوية ، بخلاف الأمور الدينية المحضة .

فقد اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم فى شعب أبى طالب خارج مكة ، وكانت قريش طلبت منهم أن يسلموا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه فأبوا . فاجتمع رأيها على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى ذلك الشعب ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى الكعبة توكيدا على أنفسهم . فلما رأى أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك جمع بنى هاشم وبنى المطلب مؤمنهم وكافرهم وتشاوروا فى أمرهم . فأمرهم أبو طالب - وكان لا يزال على دين قريش - أن يدخلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم الشعب . ويمنعوه مما تريده قريش . ففعلوا ما أمرهم به ، ومضى أمرهم شورى بينهم مؤمنهم وكافرهم إلى أن خرجوا من ذلك الشعب ، وكان أبو طالب هو الذى قام بحمل قريش على نقض صحيفتهم بعد أن أخذ رأى النبى فى ذلك . وكان قد أخبره بوحى من الله أن

الأرضة أكلت ما فيها من ميثاق وعهد على منابذتهم . وكان أبو طالب لا يزال على دين قومه إلى ذلك الوقت .

وقد اجتمع المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة بمن كان فيها من اليهود والمنافقين الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الشرك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف حقيقة أمرهم ، ومع هذا كان لا يمنعهم من الدخول فى الشورى إذا دخلوا فيها . وهم على ما هم من النفاق الدينى والوطنى الذى لا يشاركهم فيه أهل الذمة . فهم أولى بهذا الحق منهم ، وإن كانوا لا يتظاهرون بالاسلام مثلهم ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ رأى اليهود فى بعض أموره . فيجب أن يقاس عليها غيرها من الأمور الدنيوية التى لا يصح حرمانهم من حق الشورى فيها ، وهم لا يطمعون أن يشاركونا فى الشورى فى أمورنا الدينية ، ولا يتطلعون إلى ذلك فى تشريعاتنا الاسلامية . كما لا نتطلع إلى مشاركتهم فى تشريعاتهم الدينية الخاصة بهم ، ولا ضرر على ديننا من مشاركتهم لنا فى الشورى فى الأمور الدنيوية ، وقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم لنا علم أمور الدنيا فقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، وعلم أمور الدنيا يستوى فيه المسلم وغير المسلم . بل قد يكون غير المسلم أعلم بها من المسلم .

حروب الإسلام تحريرية لا استعمارية

وإذا ثبت أن الاسلام كان منزها عن المطامع الاستعمارية فإن حروبه لا يمكن أن تقوم من أجلها . وإنما تقوم حروبه من أجل التحرر من الاستعمار ومطامعه ومظالمه . ولولا هذا لما خاض أهله غمار حرب من الحروب ، لأنه دعوة تسالم وتراحم ، وأهله دعاة سلام لا دعاة حروب ، ولكنهم إذا حوربوا وكان فيهم قوة على الدفاع عن أنفسهم حاربوا ، وإذا لم يكن فيهم قوة على الدفاع عن أنفسهم صبروا على المظالم صبر الكرام ، وعملوا على التخلص منها بما يمكنهم من الوسائل ، كما صبروا على مشركى قريش فى مكة ثلاث عشرة سنة ، صبروا على مظالمهم فيها صبرا كريما لا خنوع فيه ولا مذلة . ولا رضا فيه بالبقاء فى هذا الحكم الظالم ، إلى أن أمكنهم التخلص منه بالهجرة إلى المدينة .

فلما هاجروا إلى المدينة بقى إخوان لهم ضعاف فى مكة لم يمكنهم الهجرة منها : من شيوخ قعد بهم العجز ، ومن نساء لا قدرة لهن على مشاق الهجرة ، ومن ولدان حجزهم أولياؤهم عنها ، فكان لهم عذرهم فى البقاء بمكة تحت سيطرة حكمها الظالم . بخلاف من بقى فيها من المسلمين وهم قادرون على الهجرة إلى المدينة ، فإن الإسلام لم يعذرهم فى إيثارهم حياة الاستعباد فى مكة على حياة الحرية فى المدينة ، لأنه دين الحرية والعزة والكرامة . وفيهم نزل قوله تعالى فى الآية ٩٧ من سورة النساء : (إنّ الذينَ توفاهمُ الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا: فيمَ كنتمْ

قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟... فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) ثم استثنى منهم أولئك الضعاف العاجزين عن الهجرة فقال : (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً) ومع هذا جعلهم في حاجة إلى عفوه . ومن يحتاج إلى عفو لا يكون شأنه كشأن من لا يحتاج إليه في أمر كان منه .

وكان أولئك المستضعفون من المسلمين بمكة سببا في قيام أول حرب تحريرية خاضها المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة . وقد ورد هذا الغرض التحريري من هذه الحرب في قوله تعالى في الآية ٧٥ من سورة النساء : (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) .

فلما قامت هذه الحرب التحريرية بين المسلمين المهاجرين ومشركي مكة انضم إليهم مشركو العرب في حروبهم . وعاملوا من أسلم منهم كما عامل مشركو مكة من بقي فيها من المسلمين ، وحينئذ تكون جميع الحروب التي خاضها المسلمون في بلاد العرب حروبا تحريرية من أجل حرية العقيدة . ومن أجل تخليص المسلمين من حكم المشركين واستعباده وظلمه لهم .

ثم كان هناك رأس مال يهودي يلعب في بلاد العرب لعبة خطيرة .

ويحاول استغلال جهالة العرب ، لينشر بينهم الفقر وما إليه ، مما يرقعهم أخيرا فى حبائله ، فتصير بلادهم له بهذه الوسيلة الاستعمارية الخبيثة ، كما صارت الهند حديثا مستعمرة بريطانية بمثل هذه الوسيلة الدنيئة .

فلما رأى نهضة المسلمين بالمدينة وعملهم على جمع كلمة العرب تحت راية الإسلام ، ليأخذوا مكانهم بين الأمم ، ولتكون بلادهم لهم لا لغيرهم وليتخلصوا من سيطرة الاستعمار الفارسىّ والرومىّ ، ومن سيطرة رأس المال اليهودىّ ، ولينعموا بحياة سعيدة كما ينعم غيرهم فى هذا العالم ، لما رأى هذا كله انضمّ إلى مشركى العرب فى حرب المسلمين . وبلغ من دنائته أن فضّل شرك العرب على ما يدعو إليه المسلمون من التوحيد مع أن دعوة التوحيد هى دعوة نبيهم موسى عليه السلام ، وفى تفضيلهم للشرك على التوحيد يقول الله تعالى فى الآية ٥١ من سورة النساء : (ألمْ تر إلى الذين أوتوا نصيباً مِنَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذين كفروا : هؤلاءِ أهدَى مِنَ الذينَ آمنوا سبيلاً . . .) .

فكانت حرب المسلمين لليهود فى بلاد العرب حربا تحريرية أيضا . لأنهم انضموا إلى طغاة المشركين وحكامهم الظالمين . لينصروا ظلام الشرك على نور الإسلام . وجهل المشركين على ما يدعوهم الإسلام إليه من العلم . وطغيان الاستبداد على حرية الاعتقاد . وتزيد على هذا أنها كانت لتحرير العرب أيضا من رأس المال اليهودى الذى كان يعمل بالحيلة على سلب بلادهم منهم .

وقد تمكن المسلمون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من تخليص العرب أولا من اليهود وسيطرة رأس مالهم عليهم . فأجلى بعضهم من بلاد العرب؛ كبنى قينقاع وبنى النضير . واستولى على بلاد بعضهم؛ كبنى قريظة ويهود خيبر . وكانت مستعمرات يهودية فى قلب بلاد العرب ، وكان خطرها عليهم شديدا . لأنها كانت تعمل فى السر بينهم لأغراض استعمارية بعيدة ، وضرر من يعمل فى السر أشد من ضرر من يعمل فى الجهر .

ويجب أن ننتبه إلى أن الإسلام لم يعامل اليهود فى بلاد العرب بهذا لأنهم يهود ، وحاشاه أن يعاملهم به من أجل هذا وهو دين إنسانى لا يفرق بين عربى وغير عربى ، ولا بين مسلم وغير مسلم ، بل جميع الناس فى حكمه سواء على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، وإنما عاملهم بهذا لأنهم كانوا أصحاب مطامع استعمارية فى بلاد العرب . وقد عاشوا بين العرب قروناً كثيرة ، ولقوا منهم فى بلادهم معاملة سمحة كريمة . ومع هذا لم ينظروا إليهم إلا على أنهم عرب وهم يهود ، وأنهم لا سبيل عليهم فى نهب أموالهم بالربا الفاحش وغيره من وسائلهم الدنيئة ، مع أنهم أصحاب هذه البلاد وهم ضيوف عليهم . وفى هذا يقول الله تعالى فى الآية ٧٥ من سورة آل عمران : (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

ولو أنهم تخلوا عن هذه المطامع الاستعمارية الآثمة لأبقاهم الإسلام بجانب العرب بعد إسلامهم كما كانوا فى جاهليتهم . وهو دين سمح كريم لا يذكر بجانب سماحته شرك العرب . وقد عمل على هذا فعلا بعد الهجرة إلى المدينة . فعقد بينهم وبين المسلمين معاهدة جعل لهم فيها ما للمسلمين وعليهم فيها ماعليهم ، وكانت فى المدينة حروب جاهلية آثمة بين عربها من الأوس والخزرج ، وقد شاركهم فيها يهودها بعد أن غلبت عليهم طباع الجاهلية العربية ، فأبطل الإسلام هذه الحروب بينهم ، وجمع كلمتهم بعد تفرّقها ، وألق فى قلوبهم الألفة والمحبة بعد العداوة والبغض .

فحسد اليهود العرب على هذه الألفة والمحبة ، وكان فيهم شيخ يقال له « شاس بن قيس » ، قد عسا (١) عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم ، فمرّ على نفر من مسلمى الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد(٢) لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . ولا يعنى بهذا إلا قرارهم على مطامعهم الاستعمارية فيهم ، وعلى استغلالهم لتفرقهم أسوأ استغلال .

---

(١) عسا : اشتد وقوى وتمكن فى كفره فصعب إخراجه عنه .

(٢) قيلة : أم الأوس والخزرج .

فأمر فتى شابًّا من اليهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاثَ وما كان قبله (١) ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الفتى اليهودى ما أمره به . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى توائب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة . وغضب الفريقان جميعا . وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة (٢) السلاح السلاح . وخرجوا إليها يريدون الحرب .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم . فقال : « يامعشر المسلمين . الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم؟!! .

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين .

ولم تزل باليهود هذه المطامع الاستعمارية حتى جعلتهم يظهرون عداوتهم للمسلمين ، ويعملون على نقض المعاهدة المعقودة بينهم برضا

---

(١) هو يوم من أيام حروبهم ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج .

(٢) حرة فى المدينة .

منهم ، ويقعون فى خيانات آثمة طائفة بعد طائفة . فعمل المسلمون أولا على التخلص من هذا المستعمر الدخيل بينهم لأنه يعيش بين أظهرهم ، ويحتال فى تفريق كلمتهم . ولا شك أن المستعمر الدخيل أشدّ ضررا من المستعمر غير الدخيل ، لأنه يخلط السم فى الدسم ، حتى يقضى على من يريد القضاء عليه من غير أن يشعر .

فتخلص المسلمون أولا من بنى قينُقاع فى السنة الثانية من الهجرة . ثم تخلصوا من بنى النضير فى السنة الرابعة . ثم تخلصوا من بنى قرَيظة فى السنة الخامسة . ثم استولوا على خيبر فى السنة السابعة . وقد أبقوا فيها أهلها من اليهود ، لأن أمرهم كان أخف من أمر يهود المدينة ، وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة .

ثم جاء بعدهم دور المستعمر الفارسىّ فى جنوب بلاد العرب . ودور المستعمر الرومى فى شمالها . ولكن الإسلام له غايته الدينية قبل غايته السياسية من تخليص العرب من حكم مستعمريهم من الفرس والروم ، فآثر أن يبدأ بغايته الدينية أولا . فقام بدعوة كل من كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم إلى الاسلام . وأرسل رسله إليهما وإلى من أقاموهم ملوكا من العرب يحملون كتبا لا سيوفا ، ويبغون سلما لا حربا ، ويريدون إسلاما اختياريا لا كرها .

وإنما كانت الغاية الدينية فى الإسلام قبل الغاية السياسية ، لأن الإسلام لا يهمه جنس الحاكم على المسلمين إذا كان مسلما . ولو أن كلاّ من كسرى وقيصر أجاب دعوة الإسلام لبقى لهم حكمهم فيمن

تحت يدهم من المسلمين ، لأن الاسلام لم يظهر بين العرب ليجعلهم حكاما على العالم ، وإنما هم خدام دعوته لوجه الله تعالى ، وكذلك كل من يدين بالاسلام بعدهم .

ولكن كسرى لم يجب إلى دعوة الإسلام ، بل اتخذ موقفا عدائيا نحوه ، واستشاط غيظا حين ترجم له كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأرسل إلى باذانَ عامله على اليمن يأمره أن يبعث إليه برأس هـــذا الرجل الذى ظهر بالحجاز ، وبعث إليه بذلك الكتاب ، فكبر عليه أن يوجه إليه رجل من العرب الذين يستعمر بلادهم وينظر إليهم نظرة العبيد — بكتاب يقول فيه : إلى كسرى عظيم الفرس . ولا يصفه بأنه إله الآلهة — وهو طغيان جبابرة الاستعمار الذين كانوا يرون أنهم فوق طينة البشر ، ويستبيحون دم من يرفع رأسه أمامهم — ولا يمنع لهم بل يعطيهم حقهم من التعظيم فى عزة وكرامة ، ولا يرى إلا أن كسرى عظيم الفرس فقط ، وليس بإله ولا شبه إله . ولكن الله تعالى لم يمهله على هذا التجبر والتكبر ، بل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله وخلفه على ملك الفرس ومستعمراتهم ببلاد العرب وغيرها . وكان هذا بعد أن غلب الروم على جيوشه . واستولوا على كثير من بلاده ، فوهن أمره ، وضعف ملكه .

فلما تناول باذانُ رسالة كسرى إليه بعث بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا قبل أن يقوم شيرويه بقتل كسرى أبيه ، ولكنها لم تصل إلى المدينة حتى كان شيرويه قـــد قام

بقتله ، وحدث بهذا من الوهن فى أمر الفرس ما حدث ، وكان لهذا أثره فى نفس بازان ، لأنه رأى نفسه أمام دعوة قوية جديدة وحدت كلمة العرب ، ونهضت بهم نهوضا عظيما . بينما أخذ أمر قومه من الفرس فى الضعف والتأخر . فلم يكد النبى صلى الله عليه وسلم يكتب إليه ردا على رسالته يدعوه إلى الاسلام وأن يبقى عاملا له على اليمن حتى أجابه إلى ذلك . فأقامه عاملا على اليمن إلى أن مات وهو عامل عليه . فولى ابنه «شهر» على صنعاء وما جاورها ، وولى بعض أهل اليمن وبعض أصحابه بالمدينة على ما بقى منه ، وبهذا تحرر اليمن من الأكاسرة المستعمرين . ولا يؤثر فى هذا بقاء بازان الفارسى عاملا على اليمن بعد إسلامه ، لأنه صار بإسلامه مواطنا مسلما له حقه فى الوطن الاسلامى كالمسلم العربى . وله أن يصل إلى وظيفة العامل على اليمن وإلى أعلى منها كغيره من العرب سواء بسواء .

وقد دخل مع بازان فى الإسلام غيره من أبناء الفرس فى اليمن ، وكان لهم مواقف محمودة فى حركة الردة التى قام بها بعض العرب فى خلافة أبى بكر . وكانت حركة رجعية استعمارية ، لأن من قاموا بها كان بعضهم من العرب الرجعيين الذين عاودهم الحنين إلى فوضى الجاهلية . ومن شيوخ القبائل الذين كانوا يحكمون فى قبائلهم حكما استبداديا . ومن اذناب الاستعمار الفارسى الذى حاول أن يسترد ما فقده من بلاد العرب . وكان قد قضى على دولة المناذرة التى كان يحكم العرب باسمها قبيل الاسلام ، وقتل النعمان بن المنذر آخر ملوكها . لأنه حاول أن يرفع رأسه أمام كسرى الطاغية ، وأن يرفع شيئاً

من شـــأن العرب ، فعظم ملـكه وارتفع شـأنه بينهم . فلم يطقه كسرى . ولم يطق دولته . فقتله وأقام رجلا من طيء بدله عاملا له على الحيرة .

فلما وجد المستعمرون من الفرس وأذنابهم من العرب الرجعيين أن أمر العرب أفلت من أيديهم بعد إســـلامهم . قاموا بتلك الحر الاستعمارية الرجعية التى تسمى بحركة الردة . وحاولوا أن يعيدوا دولة المناذرة ليخدعوا بها العرب كما خدعوهم بها قبل الاسلام ، وأن يجمعوهم بها على حرب المسلمين ، ليعيدوا الاستعمار الفارسى فى بلاد العرب كما كان ، وكان العراق من بلاد العرب لا يزال خاضعا لهذا الاستعمار الغاشم . فأقام إقطاعيو الفرس بالعراق ومعهم أذنابهم من قبائل بكر المنذرَ بن النعمان بن المنذر ملـكا مكان آبائه المناذرة ، وأشركوا معه الأساورة من الفرس(١) ليكون ملـكه ملـكا صوريا كما كان ملك المناذرة فى الجاهلية ، ويحكم الاستعمار الفارسى من ورائه فى بلاد العرب .

خاضها أبو بكر فى خلافته حربا تحريرية ، قابل فيها جموع الاستعماريين الفارسيين وأذنابهم من العرب الرجعيين ، وخاضها معه من بقى مخلصا للإسلام من العرب ، وانضم إليهم أبناء الفرس باليمن ، ووقفوا فى صفوفهم موقفا يحمد لهم ، وتحملوا فى ذلك من أذى العرب الرجعيين ما تحملوا . وهم الذين دبروا مؤامرة اغتيال الأسود العنسى الذى ادعى

---

(١) معجم ما استعجم : جـ ٢ ص ٦٩٣

النبوة باليمن . وقتل، شهر بن باذان، واستولى على اليمن بعد قتله ، ثم تزوّج امرأته ، آزاد ، واتخذ فيروز ، وداذويه الفارسيين وزيرين له . ولكنه لم يلبث أن استراب بهما وبسائر أبناء الفرس باليمن . وأدرك أنهم لا يزالون على إسلامهم ، وأن ضلوعهم تنطوى على المكر به . فعزم على البطش بهم وأخذ يتحيّن الفرص لتنفيذ عزمه فيهم .

وقد أطلع زوجته، أزاد، الفارسية على عزمه . وكان يظن فيها الإخلاص له ، لما كانت تظهره له من الحب ، والحقيقة أنها كانت تبغضه كل البغض ، ولكنها استطاعت بمهارتها أن تخفيه عنه . فلما أطلعها على هذا أخبرت به فيروز ، وداذويه وتآمروا على أخذه غيلة . فدلتهم على حجرة نومه . وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ، فإذا كان الليل تقبروها ودخلوا عليه وقتلوه ، ففعلوا هذا واغتالوه وهو يغطّ فى نومه ، واستعادوا اليمن بهذا للإسلام وأهله .

ثم سار المسلمون فى هذه الحرب التحريرية من نصر إلى نصر ، حتى قضوا على حركة الردة فى جزيرة العرب ، ثم انتقلوا إلى العراق فحرروه من حكم الفرس وأذنابهم من العرب ، وأعادوه إلى حظيرة الوطن العربى الذى هو جزء منه ، وكان عامة أهله من العرب ، وكانوا يعملون فى أرضه لدهاقين الفرس . ثم تجاوزوا العراق إلى بلاد الفرس نفسها ، لأنهم لم يذعنوا للهزيمة فى العراق ، وأخذوا يواصلون الحرب فى بلادهم ، ولأن الله تعالى أراد أن يحرّرهم أيضا

من حكم الأكاسرة الذين يتخذونهم عبيدا لهم ، ويزعمون أنهم آلهة تجب عبادتهم . فنصر المسلمين عليهم فى بلادهم حتى قضوا على دولتهم ، وتبين لرعيتهم من الفرس أنهم لم يكونوا آلهة كما يزعمون . فدخلوا فى دين الإسلام الذى يسوى بين الحاكمين والمحكومين ، ولا يجعل من الحاكمين آلهة ولا أشباه آلهة .

وكذلك كان شأن المسلمين مع المستعمرين من الروم وأذنابهم من الغساسنة الذين استخدموهم فى استعمارهم بالشام ، فقد كبر عليهم أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليهم برسل يدعونهم فى سلم إلى الإسلام وكانوا طغاة استعمار مثل طغاة الفرس ، وإن كانوا نصارى أهل كتاب لأن نصرانيتهم كانت اسمية لا أثر لها فى نفوسهم ، وإنما كانوا ينظرون إلى أنهم رومان خلقوا للسيادة والحكم ، وخلق غيرهم من أمم الشرق والغرب للاستعباد والاستعمار ، وإن كانوا نصارى مثلهم فى الدين ، لأنهم كانوا قد اتخذوا لهم نصرانية ملكية نسبة إلى ملوكهم ، وجعلوها فوق نصرانية غيرهم ممن ابتلى باستعمارهم ، ففعلوا برسل الدعوة الإسلامية إليهم ما نورع عنه كسرى المجوسى ، لأنه اكتفى بتمزيق كتاب الدعوة إليه ، ولم يقتل الرسول الذى وصل إليه به . أما هؤلاء فقد استباحوا دماء رسل الدعوة إليهم ، ورسل الدعوة لا تستباح دماؤهم شرعا ولا عرفا . وكان بينهم نفر قليل دانوا بالإسلام ، فاستباحوا دماءهم وقتلوهم أيضا .

فكانت حروب المسلمين معهم حروبا تحريرية أيضا . حرروا فيها الشام أولا من استعمارهم ، ثم انقلبوا إلى مصر وبلاد المغرب ، فحرروها

منهم(١) وكان أمرهم مع المسلمين أشد من الفرس . لاتساع رقعة بلادهم ، وللبحار التى كانت فاصلة بينهم وبين المسلمين ، فاتصلت الحروب بين الفريقين قرنا بعد قرن ، إلى أن ورثها أهل أوربا عنهم وقاموا فيها مقامهم ، ولم تكن حروبهم للمسلمين فى هذه القرون الأخيرة إلا استعمارية مثل حروب الروم قبل الإسلام سواء بسواء .

وكانت لهم فى هذه الحروب المتواصلة حروب سموها بالحروب الصليبية وتبعهم مؤرخو المسلمين فى هذه التسمية غفلة منهم ، والحقيقة أنها كانت حروبا استعمارية لا صليبية ، لأنهم استولوا فيها على القسطنطينية وغيرها من البلاد النصرانية قبل أن يصلوا إلى بلاد المسلمين ، وقد أمكنهم فى هذه الحروب أن يستولوا على بعض بلاد الشام ، فأسسوا لهم فيها دويلات صغيرة لم تلبث أن قضى عليها المسلمون بعد مدة قصيرة . وقد قضوا بهذا على ما كان لهم من آمال فى استعادة الاستعمار الرومانى فى الشام وغيره . فلم يستطع أهل أوربا فى هذه القرون أن ينالوا مآربهم الاستعمارية من أمم الشرق كما استطاعوا قبل الإسلام ، لأن الأمم الإسلامية وقفت سداً منيعا دون مطامعهم فيها ، وكان الاسلام قد نهض بها فى العلم والحضارة نهوضا عظيما ، حتى صارت أقوى أمم الأرض . وأرفعها شأنا . وأعظمها حضارة ، فلما احتكت بها أمم أوربا فى تلك الحروب

---

(١) جاء فى كتاب « الإسلام والحضارة العربية » لـ « محمد كرد على » : أن مصر والشام كانتا تحاولان قبل الفتح الإسلامى الانفصال من الروم ، وهذا يؤيد أن هذا الفتح كان مساعدة لهما على التحرر من استعمارهم .

التى سموها صليبية ، ولم تستطع أن تتغلب عليها فيها ، عرفت أن هذا يرجع إلى ما تمتاز به عليها فى العلم والحضارة . فأخذت تهتم بعلومها وتنقلها إلى لغاتها ، وأخذت تجتهد فيها وتجدد وتبتكر ، حتى صارت فيها أعلى شأنا من الأمم الاسلامية ، لأنها ركنت إلى الجمود فى الدين والعلم .

فلما رأت أمم أوربا أنها صارت أقوى من الأمم الاسلامية ، أعلنتها حربا استعمارية سافرة على أمم الشرق جميعا مسلمين وغير مسلمين ولم تعلنها حربا صليبية كما أعلنتها قبل ذلك ، بل ظهرت على حقيقتها من عدم الاهتمام بالدين ، وإن لم تتورع عن استخدامه فى سبيل مآربها الاستعمارية ، لأنها رأت الاسلام يقف كالطود الشامخ فى سبيل هذه المآرب ، ويحول دون تحقيق هذه المآرب على ما تريدها ؛ وها هو ذا ينفخ فى أمته روح التقدم والنهوض إلى أن يعيدها إلى سابق مجدها ، وإلى أن يتم تحريره لأمم الشرق من الاستعمار الأوربى الحديث ، كما حررها فى أول أمره من الاستعمار الأوربى القديم ، وسيصل أخيرا إلى ما وصل إليه أولا بعون الله تعالى ؟

بين السياسة والدين

فى معاملة عمر لبعض الذميين

كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ذمّيون من اليهود والنصارى عقد معهم معاهدات وفى لهم بها حين حافظوا عليها ، وعاملهم فيها معاملة ليس فيها شىء مما عوملوا به بعده ، فيجب أن تكون معاملته لهم فيها هى الأصل الذى يجب أن نأخذ به بعده فى معاملتنا للذميين ، وإذا وقع من عمر رضى الله عنه أو غيره من أصحابه مايخالف معاملته لهم وجب أن نلتمس له أسبابا أخرى غير الدين . لأن ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم معهم هو ما تقضى به سماحة الإسلام ، وهو ما تقضى به رسالته التى جاءت رحمة للناس كافة مسلمين وغير مسلمين ، فإذا خالف غيره من أصحابه هذا عن اجتهاد منه فى الدين كان له اجتهاده فيه ، وكان لغيره أن يجتهد فيه بما يخالفه ، كما كان الشافعى رضى الله عنه يخالف بعض الصحابة فى اجتهاده ، ثم يقول : هم رجال ونحن رجال . وإذا كان ما فعلوه معهم يرجع إلى سبب آخر غير الدين وجب أن نقف عند هذا السبب فى معاملتنا لهم ، فإذا انتهى أمره رجعنا بهم إلى المعاملة الأصلية الموافقة لسماحة الإسلام ، والملائمة لرحمته بالناس أجمعين .

لقد عقد النبى صلى الله عليه وسلم أولا مع يهود المدينة معاهدة جعل لهم

فيها مثل ما للمسلمين ، وجعل عليهم فيها مثل ما عليهم ، فلم يلزمهم فيها بلبس خاصّ بهم ، ولم يلزمهم فيها أن يركبوا دوابّ دون غيرها ، ولم يلزمهم فيها أن يكون بناؤهم فى الارتفاع دون بناء المسلمين ، بل جعل لهم فى كل هذا من الحقوق مثل ما للمسلمين من الحقوق ، ومكث وافيا بهذه الحقوق لهم إلى أن نقضوا معاهدتهم ، وإلى أن أظهروا العداء للمسلمين وانضموا إلى أعدائهم ، لمحاربهم ومحاربوه ، وأجلاهم عن المدينة وما حولها حين انتصر عليهم ، وكان حقاً له أن يجليهم ، لأنه لم يفعل إلا أن أرجعهم إلى بلاد الشام التى هاجروا منها إلى بلاد العرب ، فأرجعهم إلى القطر الذى هاجروا منه بما اقترفيه من الظلم . وقد استولى المسلمون بعد إجلائهم من المدينة على البلاد التى انتقلوا إليها فلم يظلموهم كما ظلمهم غيرهم ، بل نسوا ما كان منهم فى المدينة من نقضهم لمعاهدتهم ، ومن إظهار العداوة لهم ، فأبقوهم فى بلادهم الجديدة ، وعاملوهم بما يعامل به الذميون الذين لم يسبق منهم نقض عهد لهم .

ثم عقد صلى عليه وسلم ثانيا صلحا مع نصارى نجرانَ على ألفى حُلّة : النصف فى صفر ، والبقية فى رجب ، يؤدونها للمسلمين ، وعلى عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات غدر (١) على ألا تهدمَ لهم بيعة (٢) ولا يخرج لهم قس ،

---

(١) إنما أنث الكيد ، لأنه أراد به الحرب ، وهى مؤنثة ، وفى رواية « كيدا وغدرا »

(٢) البيعة الكنيسة .

ولا يفتنوا عن دينهم ، ما لم يحدثوا حدثا ، أو يأكلوا ربا .

وهو صلح يجرى على سماحة الإسلام أيضاً ، وعلى ما بعث به صلى الله عليه وسلم من الرحمة بالناس جميعا ، وليس فيه إلزامهم بلبس خاص ولا بركوب دواب خاصة ، ولا بالوقوف بالبنيان عند ارتفاع دون ارتفاع المسلمين ، بل نُصّ فيه على سلامة كنائسهم ، وعلى عدم إخراج قس لهم من ديارهم ، وغير القس أولى بهذا منه ، وكذلك نص على عدم فتنتهم فى دينهم . وهذه هى الحرية الدينية بأوسع معانيها .

ثم غزا النبى صلى الله عليه وسلم يهود خيبر ، وكانوا أعظم مهيج للأحزاب الذين غزَوا المدينة من المشركين واليهود ، واستمروا مجتهدين فى محالفة المشركين من الأعراب وغيرهم على المسلمين ، فلما استولى على أرضهم صالحهم على أن يبقوا فيها ويقوموا بزرعها وله شطر ما يخرج منها ، ثم تركهم أحراراً بعد هذا فى دينهم وأرضهم ، يلبسون ما يشاءون ، ويركبون من الدواب ما يختارون ، ويرفعون بنيانهم كما يريدون .

وقد مكث حال أهل الذمة فى جزيرة العرب على هذا إلى أن جاء عمر فى خلافته فأجلاهم منها ، فنزل بعضهم الشام ، ونزل بعضهم العراق وكانا قد دخلا فى حكم المسلمين ، فنقلوا من بعض الوطن الإسلامى إلى بعض آخر منه ، ولم ينفوا منه إلى أوطان أخرى ، كما كان جبابرة الاستعمار يفعلون هذا مع من استولوا على بلادهم ، فكانوا يشرّدونهم فى الأرض ، ولا يبيحون لهم أن يستقروا فى البلاد التى تدخل فى حكمهم

فإن أرادوا البقاء فيها لقوا من ظلمهم ما يحملهم على تركها إلى بلاد أخرى يجدون فيها بعض الأمن .

وهنا حصل خلاف فى السبب الذى حمل عمر على فعل هذا معهم ، فقيل : إن أهل نجران بلغ عددهم فى خلافته أربعين ألفا ، فخافهم أن يميلوا على المسلمين ، ولكنه تركهم إلى أن تحاسدوا بينهم ، فأتوه فقالوا له : أجلنا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم كتب لهم كتابا ألا يجلوا كما سبق ، فاغتنمها عمر فأجلاهم ، ثم ندموا فأتوه فقالوا له : أقلنا . فأبى أن يقيلهم ، فلما قدم على أتوه فقالوا : إنا نسألك بخط يمينك وشفاعتك عند نبيك(١) إلا ما أقلتنا . فأبى وقال : إن عمر كان رشيد الأمر .

وقيل فى سبب ذلك : إنه كان تنفيذاً لوصية أوصى بها النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوهم من جزيرة العرب أو الحجاز .

فعن ابن عباس قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس ، وأوصى عند موته بثلاث : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ، ونسيت الثالثة » . وقد ذكر بعض شراح الحديث أنها تجهيز جيش أسامة ابن زيد .

وعن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع فيها

---

(١) ظاهر هذا أنه هو الذى كتب لهم معاهدتهم وشفع لهم فيها .

كتاب الأموال عن نافع عن أسلم أن عمر أمر فى أهل الذمة أن تجزّ نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكُف عرضا(١) ولا يركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق(٢) وكذلك روى البيهقى عن عمر أنه كتب إلى أمراء الأجناد : أن يختموا رقاب أهـــل الذمة بخاتم الرصاص ، وأن تجز نواصيهم ، وأن تشد المناطق . إلى غير هذا مما لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم فى أهل ذمته ، ومما يخالف سماحة الإسلام ، ويخالف رسالته التى جاءت رحمة للناس جميعا ، ويخالف ما جاء به القرآن من البرّ بأهل الذمة ، كما قال تعالى فى الآية — ٨ — من سورة الممتحنة: (لا ينهاكمُ الله عنِ الذينَ لم يقاتلوكمْ فى الدين ولم يخرجوكمْ منْ دياركمْ أن تبروهم وتقسطوا إليهمْ إن الله يحبّ المقسطين) فهى شاملة لأهل الذمة وغيرهم ممن يسالمنا ولا يقاتلنا ، فلابدأن يكون ما فعله عمر من ذلك مع أهل الذمة لضرورة اقتضته فى خلافته ، والضرورات تبيح المحظورات ، ولكن يجب أن نقف إباحتها عند حدها ، فإذا زالت الضرورات زالت المحظورات معها .

وإنه ليجب أن نقف فى هذا عند رواية البيهقىّ : أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد الخ ، فإن هذا صريح فى أن ما أمر به عمر من ذلك كان خاصاً لا عاماً ، لأنه لم يكن إلا مع أهل الذمة الذين دخلوا حديثا فى ولاية أمراء الأجناد المحاربين، وكانت الحرب لا تزال قائمة مع المسلمين ومن

---

(١) الأكف : جمع أكاف وهو البرذعة .
(٢) الزنانير : وهى ما يشد على الوسط .

ينتمى إليهم هؤلاء الذميون فى الدين أو القومية ، فدخلوا فى ذمتنا ، ولا تزال قلوبهم مع من بقى منهم محاربا لنا ، يقومون لهم بالتجسس علينا ، ويدبرون المؤامرات لهم بيننا ، ويقومون فى الخفاء بحركات الاغتيال والتخريب فيما استولينا عليه من بلادهم ، فهؤلاء هم الذين أمر عمر بفعل ماسبق معهم تمييزا لهم ، ليكونوا معروفين للمسلمين وظاهرين بينهم ، فيمكنهم أن يحذروهم ويراقبوهم فى كل وقت ، ولا يمكنوهم مما يقومون به من المؤامرات وغيرها من ضروب الخيانات .

وهذه ضرورة قدرها عمر بقدرها ، واتخذ ماسبق مع قوم مخصوصين من أهل الذمة ، إن صح أن يقال إن مثلهم أهل ذمة ، والحقيقة أنهم لم يكونوا فى شىء منهم ، وإنما كانوا جواسيس بين المسلمين لمن بقى منهم محاربا لهم ، وإطلاق أهل الذمة على مثلهم غفلة من المؤرخين ، وغفلة من الفقهاء الذين أرادوا أن يأخذوا أهل الذمة عامة بمثل ما أخذوا به ، ولقد كان فى جيوش المسلمين أهل ذمة من نصارى العرب وغيرهم حاربوا معهم مستعمرى الروم والفرس ، دفاعا عن قوميتهم العربية ، فهل يعقل أن يشملهم أمر عمر لأمراء الأجناد أن يختموا على رقابهم بخاتم الرصاص وغيره مما سبق ؟ فيقابل إخلاصهم لنا بالاستراية فيهم ، ويقابل انضمامهم لنا بفصلهم عنا ، وتمييزهم بهذه العلامات التى تنفّرهم منا ، وتجعلهم يؤثرون الانضمام إلى أعدائنا ، اللهمّ لا .

ويجب أن نضيف إلى ماسبق أحاديث أخرى وردت فى معاملة أهل الذمة ، لنزنها بالميزان الذى يوافق سماحة الإسلام ، ولا نأخذ

فيها بما أخذ به الفقهاء فى معاملة أهـــل الذمة ، مما يسىء إلى الإسلام ويصرف الناس عنه ، وقديما قالوا : عدو عاقل خير من صديق جاهل .

فقد روى عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقها » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم « إن اليهود إذا سلم أحـــدهم إنما يقول : السّامُ عليكم (١) فقل : عليك » .

وعن عائشة قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك . ففهمتها فقلت : عليكم السام واللعنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مهلاً ياعائشة . إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » ، فقلت : يارسول الله ألم تسمع ما قالوا ؟... فقال « قد قلت وعليكم » .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى راكب غدا إلى يهود ، فلا تبدؤوهم بالسلام ، وإذا سلموا عليكم فقولوا : وعليكم » .

---

(١) السام : الموت .

فأخذ الفقهاء من هذه الأحاديث تحريم ابتداء اليهود والنصارى بالسلام ، وقد حكاه النووى عن عامّة السلف وأكثر العلماء ، قال : وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام ، روى ذلك عن ابن عباس وأبى أمامة وابن محيريز ، وهو وجه لبعض أصحابنا حكاه الماوردى لكنه قال : يقول السلام عليك ولا يقول عليكم بالجمع . واحتج هؤلاء بعموم الأحاديث الواردة فى إفشاء السلام ، وهو من ترجيح العمل بالعامّ على الخاصّ ، وذلك مخالف لما تقرر عند المحققين ، ولا شك أن هذا الحديث الوارد فى النهى عن ابتداء اليهود والنصارى بالسلام أخص منها مطلقا ، والمصير إلى بناء العام على الخاص واجب ، وقال بعض أصحاب الشافعى : يكره ابتداؤهم بالسلام ولا يحرم . وهو مصير إلى معنى النهى المجازىّ بلا قرينة صارفة إليه ، وحكى القاضى عياض عن جماعة : أنه يجوز ابتداؤهم به للضرورة والحاجة ، وهو قول علقمة والنخعى ، وروى عن الأوزاعىّ أنه قال : إن سلمت فقد سلم الصالحون وإن تركت فقد ترك الصالحون(١) .

وإنى آخذ على أولئك الفقهاء أنهم لم ينتبهوا إلى ما ورد فى هذه الأحاديث ، مما يفيد أنها كانت فى قوم مخصوصين من أهل الذمة مناوئين للمسلمين ، بدليل قولهم فى التسليم عليهم - السام عليكم - فيجب أن يقصر ما ورد فى الأحاديث عليهم ، ولا يصح أن يؤخذ به أهل الذمة

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى : جـ ٦ ص ٥٦

عامة ، ويجب أن نقتصر فى ذلك على مقابلة المثل بالمثل من غير زيادة عليه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أنكر على عائشة ردها عليهم بقولها - عليكم السام واللعنة - وأمر أن يكتفى فى الرد عليهم بقول - وعليكم - من غير تصريح بلفظ السام ، كما صرحوا به ، ليؤخذوا بالرفق الذى أمر الله تعالى به فى الأمور كلها ، ولأن مقابلة السيئة بالحسنة خير من مقابلتها بمثلها . وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل من عائشة أن تؤذيهم باللفظ ، فإنه لا يعقل أن يأمرنا إذا لقيناهم فى طريق أن نضطرهم إلى أضيقها ، ولهذا أنكره ابن عباس ، وذكر أنه يخالف ما أمرنا به من البر بهم .

وأعجب من هذا ما ذهب إليه الفقها. فى حديث آخر له دلالته على سماحة الإسلام ، وعلى ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يمتاز به من التسامح الدينى إلى أبعد حدوده ، فقد روى عن أنس قال : كان غلام يهودى يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرض فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له « أسلم » فنظر إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم . فأسلم ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار » وفى رواية : أن غلاما يهوديا كان يضع للنبى صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه فمرض ... إلخ الحديث .

فهذه الصورة السمحة من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم يأبى الفقهاء أن يفهموها على سماحتها ، وأن يأخذوا منها ما تدل عليه من سماحة الإسلام وبعده من التعصب الدينى ، ومن حسن معاملته للذمى بالتسوية

فى الحقوق بينه وبين المسلم، كحق عيادته إذا مرض، ونحوه من الحقوق، ومن أن الذى قام بهذا هو النبى صلى الله عليه وسلم، ليكون قدوة لأصحابه ومن بعدهم فى عدم النفرة من مخالطة غير المسلمين، وفى جذبهم إلى الإسلام بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

فترى فقهاءنا لا ينظرون إلى شىء من هذا كله فى ذلك الحديث، وإنما يقولون: فى الحديث دلالة على جواز زيارة أهل الذمة إذا كان الزائر يرجو بذلك حصول مصلحة دينية كإسلام المريض، قال المنذرى: قيل يعاد المشرك ليدعى إلى الإسلام إذا رجى إجابته، ألا ترى أن اليهودى أسلم حين عرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام، فأما إذا كان لا يطمع فى الإسلام ولا يرجو إجابته فلا ينبغى عيادته - وهكذا قال ابن بطال: إنما تشرع عيادة المشرك إذا رجى أن يجيب إلى الدخول فى الإسلام، فأما إذا لم يطمع فى ذلك فلا، قال الحافظ: والذى يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى. قال الماوردى: عيادة الذمى جائزة، والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها من جوار أو قرابة.

ولا شك أن الماوردى أقربهم فى هذا إلى الإنصاف، ولكنه يؤخذ عليه أنه لم يجعل عيادة الذمى قربة فى ذاتها، لأنه جعل قربتها موقوفة على حرمة من جوار أو قرابة، والحق أنها قربة فى ذاتها كعيادة المريض المسلم، والحق أن النبى صلى الله عليه وسلم عاد ذلك الغلام فى مرضه قضاء لحق خدمته له، وأن هذا كان مقصوده الأول، وأما دعوته إلى الإسلام فقد جاءت عرضا فى عيادته له، لأنه مكث

عنده مدة يخدمه وهو لا يأمره بالإسلام ، بل يأبى تسامحه الدينى أن يستغلّ فى هذا خدمته له وحاجته إليه ، فلا يعقل أن يتركه هذه المدة وهو بجانبه ، ثم يتتهز فرصة مرضه ليذهب إليه من أجل دعوته إلى الإسلام ، والظاهر أن عيادته له وقعت عنده موقعا جميلا ، وأنها كان لها أثر حسن فى نفسه ، فبدت منه رغبة فى الإسلام جعلته يدعوه إليه ، ويتتهزها فرصة لمكافأته على خدمته له بإدخاله فى دينه ، لما فيه من الفوز بسعادة الدنيا والآخرة .

فليتدبر الذين يطعنون فى الإسلام من أعدائه فى عصرنا قصة هذا الغلام اليهودى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن فى إلحاقه له بخدمته وهو على دينه أكبر دليل على صدق رسالته ، وعلى مبلغ ثقته بصدقه فيها ، لأنه لو كان فيها أدنى ريبة لخشى أن يطلع عليها هذا الغلام اليهودى فلا يلحقه بخدمته ، ولا يجعله يخالطه إلى هذا الحد الذى يمكنه من الاطلاع على ظاهر أمره وباطنه ، لئلا يطلع على ما يخشى عليه منه .

وإن فى إسلام هذا الغلام اليهودى بعد طول مخالطته له ، وفى حالة المرض الذى ينقطع فيه أمله فى الدنيا وأعراضها ، لدليلا على أنه لم يجد مع طول معاشرته له وهو على يهوديته مطعنا على رسالته ، فآمن به إيمانا صادقا بريئا ، وآثره على يهوديته التى نشأ عليها ، وكان أبوه وأسرته يدينون بها ، على أنه لم يسلم بمجرد أمر النبى صلى الله عليه وسلم له بالإسلام ، بل نظر إلى أبيه يستطلع رأيه فى إسلامه ، وينتظر أن يأذن له به ، وفى هذا دلالة على أنه جاء عفو الساعة ، وعلى أنه جاء على مفاجأة ، فلم يسع أباه إلا أن يحيله إلى ما يرضيه من الإسلام ، تقديرا

لهذه الزيارة الكريمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقديرا لهذا التواضع الذى يأخذ القلوب ، فلا تقف فى سبيل ما يريده ، ولو كان فيه مفارقة ابنه لدينه ، وكم فى هذه السيرة النبوية الكريمة من محاسن غفل عنها الجامدون من الفقهاء ، وأدركها من تدبر فيها بمرونة الإسلام ، ونظر فيها بسماحته التى امتاز بها على غيره من الأديان .

ولا يعكر أيضا على ماجاء به الاسلام من حسن معاملة أهل الذمة قوله تعالى فى الآية ٢٠ من سورة التوبة : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وإن حملها بعض الفقهاء على فعل ما يسىء أهل الذمة حين تأديتهم كل سنة لجزيتهم ، وهو مخالف لما أمر به القرآن من البر بهم ، وإنما الصغار فى الآية صغار هزيمتهم فى القتال ، أى حتى يرضوا وهم صاغرون لهزيمتهم بإعطاء الجزية ، فيكون هذا الصغار عند عقد الجزية لا عند تأديتها لقربه من هزيمتهم ، ويكون لهم بعد عقدها حسن معاملتهم إذا دخلوا فى ذمتنا ، وحسن معاملتهم عند تأديتهم الجزية لنا ، حتى نرغبهم فى الإسلام بعد لنا ، ونستميلهم إلينا بإحساننا إليهم وقديما قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسانَ إحسانُ

القرآن ومعاملة غير المسلمين

لا يفوتنا بعد أن قوّمنا اعوجاج بعض الفقهاء فى فهم ما جاء فى الآية ٢٩ من سورة التوبة : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أن نعرض لغيرها من الآيات الواردة فى معاملة غير المسلمين بما فهمه المفسرون والفقهاء على غير وجهه الصحيح ، ولم يفرقوا فيه بين ما جاء فى المحاربين والمسالمين من غير المسلمين ، حتى جعلوا من تبعوهم من المسلمين يذهبون فى معاملة مخالفيهم مذاهب لا تليق بسماحة الإسلام ، وتعطى لهم صورة غير صحيحة عنه ، وتجعلهم يأخذونه بذنب أهله ، وقد يكون لهم فى هذا شىء من العذر ، ولا يكون هناك عذر للمسلمين الذين يحجبون عنهم سماحة الإسلام بسوء معاملتهم لهم ، ويأخذونهم جميعاً بذنب من يظهر العداوة لنا منهم .

والحقيقة أن ما جاء من القرآن فى معاملة غير المسلمين موزع بينهم ، وأن لكل طائفة منهم معاملة خاصة بها ، فيجب أن يقف المسلمون عند حدود هذا التوزيع ، لتكون معاملتهم لهم معاملة حكيمة ، وتأخذ كل طائفة منهم ما تستحقه من المعاملة ، ولا يكون هناك فى معاملتهم شىء من الحيف والانحراف ، ولا من الخروج عن حد الاعتدال ، وهى ميزة الإسلام الذى جاء دينا وسطا : لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا مغالاة فيه ولا تقصير .

وهم فى هذا التوزيع على أربعة أقسام .

١ — أهل ذمة لنا دخلوا فى حكمنا ورضوا به ، فلهم فى حكمنا مثل ما للمسلمين وعليهم فيه مثل ما عليهم ، بل لا حرج عندى فى الإسلام إذا لم نميزهم بيننا باسم أهل الذمة ، ليكون منهم ومن المسلمين وحدة وطنية لايكون فيها أثر للاختلاف فى الدين ، وليكن لنا فى هذا قدوة بما فعله عمر مع نصارى تغلب حين أنفوا أن يؤخذ منهم شىء باسم الجزية ، لأن فيه تفريقاً بينهم وبين العرب المسلمين ، فأجابهم عمر إلى ما طلبوا من أخذه باسم الصدقة ، ولم ير فى هذا حرجا فى الدين ، لأنه دين حقائق ومصالح ، لا دين ألفاظ وتقاليد ..

٢ — أهل عهد لم يدخلوا فى حكمنا ، فيجب أن نفى لهم بعهدهم ، ويجب أن نسالمهم كما سالمونا ، ويجب أن تكون معاملتنا لهم كريمة ، حتى لا يكون لمخالفتهم لنا فى الدين أدنى أثر فيها ، لتعطيهم صورة صحيحة عن كرم الإسلام وسماحته ، ولتجذبهم إليه بحسن معاملتنا لهم ، وبعدم تأثرنا فيها بمخالفتهم لنا فى الدين .

٣ — أهل سلام لا عهد بيننا وبينهم ، وهؤلاء لهم عهد السلام العام لأنه الأصل فى علاقة الإسلام ، كما قال تعالى فى الآية ٢٠٨ من سورة البقرة : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) أى كونوا من أهل السلام فى العالم ، واجعلوه هو الأصل فى علاقتكم بغيركم من الأمم ؛ لأن الإسلام دين سلام لا حرب ، ودين أمان لا خوف ، وحينئذ يجب أيضاً أن نعاملهم كما نعامل من يجمعنا بهم عهد سلام خاص ، لأنهم مثلهم فى

مسالمتهم لنا .

٤ — أهل حرب لنا ، وهؤلاء يجب أن نخاصمهم كما خاصمونا ، ولكن من غير إسراف فى الخصومة ، ولا مجاوزة لحد الاعتدال فيها ، بل يجب الوقوف فيها عند حد مقابلة الاعتداء بمثله ، ولنا أن نقابله بالعفو والصفح كرما منا ، وبهذا يراعى الإسلام حقّ الطبيعة فى مقابلة الاعتداء بمثله كما يراعى حق الأخلاق فى إيثار العفو ، وفى هذا يقول الله تعالى فى الآيتين ٣٩ ، ٤٠ من سورة الشورى : (والذينَ إذا أصابهم البغيُ هُمْ ينتصرون ، وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمَنْ عفا وأصلحَ فأجره على اللهِ إنه لا يحبُّ الظالمينَ) ثم يقول فى الآيتين ٤١ ، ٤٢ (ولمنِ انتصرَ بعدَ ظلمهِ فأولئك ما عليهم من سبيلٍ ، إنما السبيلُ على الذينَ يظلمونَ الناسَ ويبغون فى الأرضِ بغير الحقّ أولئكَ لهم عذابٌ أليمٌ) ليؤكد حق الدفاع عن النفس لكل من يقع اعتداء عليه ، وليحرم الظلم بغير الحق ، ولا يكون البغى فى الأرض إلا بغير الحق ، وإنى أرى أن يؤخذ ما جاء فى الآيتين على إطلاقه ، ليعطى الإسلام فى الآية الأولى حق الدفاع عن النفس للمسلمين وغير المسلمين ، ويحرم فى الآية الثانية البغى فى الأرض بغير الحق على المسلمين وغير المسلمين ، وهذا هو اللائق بدين جاء بشريعة الإنصاف ، وسوّى فى عدله بين كل الناس ، وهو يؤكد ماسبق من أن العلاقة فى الإسلام بين جميع الناس ، من مسلمين وغيرهم ، أصلها السلام العامّ ، فلا ظلم ولا بغى فى الأرض ، وإنما هو الحقّ لا القوة ، والعدل لا الظلم ، والسلام لا الحرب .

وقد جمع الله تعالى معاملة الأقسام الأربعة فى آيتين محكمتين من آيات القرآن الكريم ، وهما قوله تعالى فى الآيتين ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) والآية الأولى فى معاملة الأقسام الثلاثة الأولى ، والآية الثانية فى معاملة القسم الرابع ، وهناك آية محكمة وردت فى معاملة القسم الثانى ، وهى قوله تعالى فى الآية ٧٢ من سورة الأنفال (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فأوجب على المهاجرين نصر الذين لم يهاجروا من المؤمنين وآثروا البقاء بين مشركى مكة إذا استنصروهم على المشركين ، واستثنى من يكون من المشركين لهم ميثاق من المهاجرين ، فمنع المهاجرين من نصر من لم يهاجر من المؤمنين عليهم ، مع أنهم مؤمنون وإن عصوا بترك الهجرة ، ومن يحاربونهم ممن لهم ميثاق مشركون ، فراعى الاسلام فى هذا رابطة الميثاق ولم يراع رابطة الإيمان وبلغ بهذا فى الوفاء لميثاق مخالفيه والتزام الانصاف معهم ما لم يباغه دين من الأديان .

فإذا وردت آية مطلقة بعد ذلك فى معاملة غير المسلمين وجب أن تقيد بهذه الآيات الثلاث ، ووجب أن تحمل على ما جاء فيها محكما فى معاملتهم ، وعلى ما روعى فيها من تقسيمهم إلى الأقسام

السابقة .

ومن هذا قوله تعالى فى الآية ٥١ من سورة المائدة : (يأيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ بعضهم أولياء بعض . ومَن يتولّهم منكم فإنه منهم، إنّ الله لا يهدى القومَ الظالمينَ) فقد جاء فيها لفظ اليهود والنصارى مطلقاً ، فيجب أن يحمل على القسم الرابع من غير المسلمين ، وهو القسم الذى نكون معه فى حالة حرب ، ليكون موافقا للآيات الثلاث السابقة ، وليوافق سياق الآية أيضاً ، فإنه ظاهر فى أنها فى قوم متاوثين للمسلمين ، ولهذا جاء بعدها فى الآية ٥٧ : (يأيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب مِن قبلكم والكفارَ أولياءَ واتقوا الله إن كنتم مؤمنينَ) فقيد فيها ما أطلق فى الآية السابقة ، حتى لا تؤخذ على إطلاقها ، ولا يكون النهى إلا عن موالاة من يتخذ دينا هزواً ولعباً منهم ، لأنه يظهر بهذا عداوته لنا ، فلا تصح موالاته لأحد منا .

ويجب أن يلاحظ فى الآية أيضاً أنها نزلت فى المنافقين الذين يتخذون أعداء المسلمين أولياء دونهم ، فهم يوالون أعداءهم ويضمرون العداوة لهم ، وهذا لا يصح أن يكون من مؤمن صادق الإيمان أصلا ، وحينئذ يكون النهى فى الآية عن مثل هذه الموالاة لما فيها من المعاداة للمسلمين ، وقد جاءت صريحة

فى الآية ٢٨ من سورة آل عمران : « لا يتخذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنينَ ومَن يفعل ذلكَ فليسَ من اللهِ فى شىء ، إلاّ أن تتّقوا منهم تقاةً ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، والله يهدينا سواء السبيل ؟

سبق الإسلام إلى الدعوة لوحدة عالمية

إن من أكبر الأدلة على أن دين الإسلام من عند الله تعالى سبقه إلى الدعوة إلى وحدة عالمية يبطل فيها حكم الاستعمار ، وتتساوى فيها الشعوب على اختلاف أجناسها وأديانها ، ويكون الحق فيها للعدل لا للقوة . ويكون رائدها نشر المحبة والإخاء لا العداوة والبغضاء ، ليأخذ كل شعب حقه فى دنياه ، ولا يعتدى عليه فيها شعب أقوى منه ، ومثل هذا لا يقاس به ما أنشأته الدول القوية فى عصرنا من عصبة الأمم التى فشلت لغلبة هذه الدول عليها ، واستخدامها فى تدعيم حكمها الاستعمارى ، ومن جمعية الأمم المتحدة التى أنشئت بعد عصبة الأمم ، وتشبهها فى تغلب الدول القوية عليها ، واستئثارها بتوجيه السياسة الدولية فيها .

فقد ظهر دين الإسلام على يد نبى أمى فى أمة أمية ، تغلب عليها البداوة وجفوتها وغلظتها ، وتجعل الحرب والنهب أهم وسيلة للكسب فيها وتتغنى فى شعرها بمجد أبطال الحروب ، وتقدس القوة وتعلى شأنها على الحق ، ثم كان ظهوره فى عصر تتنازعه قوتان استعماريتان كبيرتان : قوة الفرس فى الشرق ، وقوة الروم فى الغرب ، وعلى رأس قوة الفرس كسرى ، يريد أن يكون سيد العالم كله ، وأن يخضع جميع الشعوب لحكمه ، وعلى رأس قوة الروم قيصر الذى لم يكن أقل شهوة من كسرى إلى الحكم الاستعمارى ، وإلى اتخاذ الحرب وسيلة فى الخلاف

القائم بينه وبين كسرى على هذا الحكم ، وكل منهما يريد أن يجعل من الشعوب كلها وحدة تخضع لاستعماره ، وتذوب جنسياتها المختلفة فى جنسية شعبه .

فكيف يتأتى لنبى أمى فى أمة أمية وعصر طغيان أن يعلو فى تفكيره على كل ما يحيط به من ذلك كله ، ويدعو إلى وحدة عادلة لا يشوبها حيف ، ولم يفكر فى مثلها أحد قبله ولا بعده ؟... اللهم إن هذا لا يكون إلا من توجيه أسمى من توجيه البشر ، ولا يكون إلا من توجيه لا يتأثر بشىء من نقص الإنسان ، وهو توجيه الله تعالى الذى يشمل الناس جميعا برحمته ، ويريد الخير لهم جميعا فى دنياهم ، ولا يخص برحمته فيها شعبا دون شعب أو فرداً دون فرد ، كما يريد طغاة الاستعمار قديماً وحديثاً .

وهذه هى الدعوة الإسلامية إلى الوحدة العالمية على وجهها الكامل ، دعى إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى الآية ١٣ من سورة الحجرات : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) فجعلها دعوة عامة للناس جميعاً لا المسلمين وحدهم ، لأن الإسلام جاء رحمة للعالمين على اختلاف أديانهم وأجناسهم . وفى الدعوة إلى هذه الوحدة العالمية رحمة بالناس جميعا ، فيجب أن تكون دعوة عامة لهم ، وإن الإسلام ليسمو بهذه الدعوة سموا كبيرا ، لأنه لا ينظر فيها إلى مصلحة أتباعه وحدهم ، وإنما ينظر إلى ما فيه مصلحتهم ومصلحة غيرهم . ثم جعل الغاية من هذه الدعوة أن يتعارفوا ويتعاونوا على هـــذه المصلحة . لا أن

يندمجوا فى جنسية واحـــدة أو فى مذهب واحد دينى أو اجتماعى أو اقتصـادى أو سياسى ، لأن الخلاف فى ذلك طبيعى فى الناس ، كما قال تعالى فى الآية ١١٣ : (ولو شاء ربّك لجعل الناس أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم) فلا يدعو الإسلام إلى الايمان به إلا بترغيب الناس فيه ، ولا يحاول جمع الشعوب على الايمان به بوسيلة غير وسيلة الترغيب .

أما تلك الوحدة العالمية على التعارف والتعاون والعدل بين الشعوب فلا تأباها طبيعة الإنسان ، ولا يحول بينها إلا تلك المطامع الاستعمارية الآثمة ، وسيأتى يوم قريب تثور فيه الشعوب جميعا على هذه المطامع ، لأن الحروب التى تثيرها الآن تقضى على الغالب والمغلوب ، وربما تؤدى - إذا اتسعت مثل الحربين العالميتين السابقتين - إلى خراب العالم ، وحينئذ لا يكون فيها نصر لقوى على ضـــعيف ، ومتى انقطع الأمل بالنصر فيهـــا انقطع الأمل فى الاستعمار الذى تقام من أجله .

وقريب من المطامع الاستعمارية فى ذلك مطامع الكتلتين المتنازعتين الآن فى عصرنا ، وهما كتلة الرأسمالية وكتلة الشيوعية ، فهما يتنازعان أيضـــاً مذهبياً كما كانت ألمانيا وحلفاؤها تنازع انجلترا وحلفاءها تنازعا استعماريا فقط ، وكل منهما يريد أن يجمع شعوب العالم على مذهبه ، وهـــذا أمر غير ممكن كما سبق ، لأن الخلاف فى الرأى من طبيعة الإنسان ، وقد كان الاسلام دينا واقعيا حينما راعى طبيعة الانسان فى ذلك ، ولم يحاول إلا جمع شعوبه على ما فيه مصلحتهم بقطع

النظر عن اختلافهم فى أديانهم وأجناسهم .

ثم ذكر فى الآية أن التفاضل بين الشعوب بالتقوى لا بالجنسية ونحوها ، ليدعى كل شعب جنسيته فى هذه الوحدة التى تجمعهم لرعاية مصالحهم ، فيراقب الله وحده فيها ، ولا يرعى مصلحة شعبه دون غيره من الشعوب ، كما حدث فى عصبة الأمم وفى جمعية الأمم المتحدة فى عصرنا ، فإن كل عضو فيهما كانت العصبية لشعبه تحدوه لا المصلحة العامة ، وفى هذا يسمو الاسلام أيضاً كل السمو ، لأنه لم يجعل للشعب العربى الذى قام برسالته أدنى فضل على غيره من الشعوب ، وإنما أطلق الشعوب فى الآية إطلاقا ، ليكون حالها فيها سواء ، ولا يكون فى اجتماعها لهذه المصلحة العامة أدنى تعصب لأى شعب ، أو لأى دين ، أو لأى مذهب ، أو لأى فارق من الفوارق ، وبهذا تؤدى رسالتها فى هذه الوحدة العالمية على خير وجه ، ولا تصطدم بالأغراض المتضاربة كما اصطدمت عصبة الأمم وجمعية الأمم المتحدة ، لأن مصالح الأمم القوية فيهما اصطدمت بمصالح الأمم الضعيفة ، لتغلب العصبية والمطامع على أعضائهما ، وهذا ما حذرنا الله تعالى منه فى الآية ٩٢ من سورة النحل : ﴿ ... تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ فتحاول الأمة الأربى أن تجعل مصلحتها فوق مصلحة من هى أقل منها ، وتنقض بهذا عهد الله الذى أخذه على بنى آدم أن يكونوا عادلين شهداء لله ولو على أنفسهم .

ثم جاء الحديث بعد القرآن مؤكدا لدعوته فى ذلك ، ومؤكدا لما أحاط بها فى الآية مما يضمن نجاحها فى الوصول إلى غايتها ، فأخذ

النبي صلى الله عليه وسلم قومه بها ، ليكونوا قدوة فيها لغيرهم ، وكان هذا حين فتح مكة وعلا بلال بن رباح مؤذنه ظهر الكعبة لينادى بالأذان ، وكان عبدا من عبيد قريش قبل الإسلام ، فاستعظم أشرافهم أن يعلو مثله ظهر الكعبة ، فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم :

« أيها الناس إن الله أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها(١) فالناس رجلان : برّ تقى كريم على الله تعالى ، وفاجر شقى هين على الله تعالى ، والناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، قال تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية » .

فبلال بن رباح وأبو سفيان بن حرب زعيم قريش سواء بعد الإسلام ولا يصح أن يتعاظم بعده فرد أو شعب بنسب أو نحوه مما كانوا يتعاظمون به قبله ، لأن رسالة الإسلام رسالة تسوية وإخاء ، لا يعلو فيها فرد على فرد ، ولا يعلو فيها شعب على شعب ، بل كل الشعوب لاحقها فى الحياة ، ولها نصيبها فى العدل الذى يجب أن يشملها جميعا .

فإذا أردنا فى ذلك سنة عملية وجدناها فيما قيل فى سبب غزوة بنى النضير من يهود المدينة ، فإنه قيل فى سببها أن عمرو بن أمية الضمرى قتل رجلين خطأ من بنى عامر ، وكانوا حلفاء بنى النضير ، وذلك أن عمرا كان فى سرية القراء إلى بئر معونة ، وهى بئر بين أرض بنى عامر وحرة بنى سُليم ؛ وكانوا يريدون دعوتهم إلى الإسلام ، فغدروا بهم

وقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد وعمرا ورجلا آخر ، فنزل عمرو فى ظل حين نجا ، فأقبل رجلان فنزلا معه ، فسألهما فأخبراه أنهما من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو ، فأمهلهما حتى ناما فعدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر ، فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم أخبره بقتلهما ، فقال له : لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما . أنى لأدفعن ديتهما ، ثم ذهب إلى بنى النضير ليسألهم كيف الدية فيهم ، لأنهم كان بينهم وبين بنى عامر حلف وعقد كما سبق ، وكان فى نفر من أصحابه دون العشرة فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحاله ، فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ ... فقال رجل منهم : أنا لذلك . فلما علم بهذا الغدر منهم حاربهم وأجلاهم .

فهذه سنة من السنن العملية ، ذهب فيها النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير ليتفاوض معهم فى شأن الدية التى يؤديها إلى بنى عامر لأنهم حلفاؤهم ، وكان بنو النضير إلى ذلك العهد حلفاء له أيضا ، أما بنو عامر فكانوا معه فى حالة حرب بعد قتلهم لأصحابه من القراء الذين قتلوهم ، ولهذا ذهب إلى بنى النضير ليتفاوض معهم فى شأن دية القتيلين دونهم ، ولا شك أن تفاوضنا فى هيئة عالمية كجمعية الأمم المتحدة فى شؤوننا الدولية كتفاوضته صلى الله عليه وسلم لبنى النضير فيما بينه وبين بنى عامر فهو مثل تلك الشئون الدولية التى تبحثها جمعية الأمم المتحدة سواء بسواء .

ولا يضير هـذا القياس أنه قيل فى سبب غزوه صلى الله عليه وسلم لبنى النضير غير ما سبق ، فقيل إنه ذهب إليهم ليستعين بهم فى هـذه الدية لا ليسألهم كيف الدية فيهم ، وقيل غير هذا مما قيل فيه ، لأنه يكفينا عرضهم لذلك السبب السابق لبنى هذا القياس عليه ، لأن عرضهم له دليل على أنه لا شيء شرعا فيه ، والله أعلم ؟

مسئولية أرسطو فى الاستعمار الأوربى

لم أكد أنتهى من هذا الكتاب حتى كنت قد وصلت فى — دائرة معارف على الهوامش — إلى تقييد ما بدالى تقييده على كتاب السياسة لأرسطو ، وقد ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية ، بارتلمى سانتهيلير ، وصدّره بمقدمة طويلة ، ونقله إلى العربية أحمد لطفى السيد ، وكأن الله تعالى أراد بهذا أن أختم كتابى بهذا الفصل الذى لم يكن منه بد فيه لأمرين :

أولهما بيان فضل الإسلام فى سياسته الإنسانية البريئة ، لأنها كما سبق قد خلت من كل أثر للتعصبات الجنسية ، ولم تجعل للعرب الذين قاموا برسالة الإسلام فضلا على غيرهم من الأجناس ، ولم تعطهم حق استعمار غيرهم من الأمم ، بخلاف سياسة أرسطو فى هذا كله ، على ما سيأتى نقله من كتابه السابق .

وثانيهما بيان أن مثل هذه السياسة الإسلامية إذا سمت هذا السموّ على سياسة أرسطو فإنه يكون فيها أكبر دليل على أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن أرسطو هو واضع علوم الفلسفة ومهذبها ، وهو المعلم الأول عند أصحاب هذه العلوم ، وهو سيد الحكماء باعترافهم ، فكيف تستقيم لمحمد فى أميته هذه السياسة الإنسانية ولا تستقيم لأرسطو لو كانت من عنده ؟... اللهم لا ، وحينئذ يكون فى هذا دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وكم عليها من دليل غيره .

وهذا بعض ما قيدته من كتاب السياسة لأرسطو على نظام دائرة معارف على الهوامش :

ص

٩٣ للإغريق على المتوحشين حقّ الإمرة — فتأمل .

٩٨ الخلاف في الرق. هل هو بالطبع أو بالقانون؟.. واختياره للأول

١١٠ كون الحرب وسيلة طبيعية للكسب .

١٦١ دعواه أن العبيد إذا عوملوا بالرفق صاروا وقحا.

١٨١ محل الإقامة لا يحدّد المواطن ؛ لأن الأجانب والعبيد يملكونه وإنما المواطن فرد مخوّل سلطةً ما .

٢٠٦ ذكره أن كل ما يفعل الطاغية عدل .

٢١٧ الرجال الممتازون يمكن عدّهم آلهة بين الناس .

٢٢٢ دعواه أن الآسيويين يطيقون استبداد الحاكم بخلاف الأوربيين

٢٥٤ دعواه أن شعوب الأرض الباردة أقلّ ذكاء وأكثر شجاعة من غيرهم ، وأن اليونان جمعوا الفضيلتين .

٢٥٩ ذكره أن الزرّاع إما عبيد أو متوحشون .

٢٥٨ منعه نظر الأطفال إلى تماثيل تثير الشهوة إلا في المعابد التي يجيز القانون فيها الفحش .

فني هذا كله ينحدر الفيلسوف العظيم إلى سياسة طائفية لا إنسانية ، يتعصب فيها للأجناس الأوربية عامة ، ولجنسه اليوناني خاصة ، فيضع الأجناس الأوربية فوق الأجناس الآسيوية وغيرها ، ويضع الجنس اليوناني فوق الأجناس كلها ، ويجعل له وحده حق الحكم على غيره من

الأجناس ، ويجعل الحرب وسيلة طبيعية للكسب ، ليأكل القوى الضعيف وتعلو القوة على الحق ، بل يبلغ من أمره أن يذهب إلى أن كل ما يفعله الطاغية عدل ، إلى غير هذا من انحرافاته فى آرائه السياسية .

ومن هذا نرى أن الاستعمار الأوربى الحديث إنما ورث هذه الآثام عن الاستعمار اليونانى والرومانى القديم ، وأن المسيحية الشرقية لم يمكنها أن تنتزع منه هذه الآثام بعد إيمانه بها ، لأن ما بالطبع لا يمكن انتزاعه من النفس .

فأين ماذهب إليه أرسطو فى سياسته مما ذكره أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك؟... إذ فضل السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصطلاحية على السلطان المؤمن المضيع للسياسة النبوية العدلية ، فيصل بالسياسة الإسلامية الإنسانية إلى أقصى حدود الإنصاف ، وإن كان فيه شىء من الرضا بحكم المستعمر الكافر ، والعصمة لله وحده .

فهرس الكتاب

ص	الموضوع
١	خطبة الكتاب
٣	التعريف بالحكم الاستعمارى
٥	القرآن والحكم الاستعمارى فى قصة سليمان وملكة سبأ .
	- ٥ - عظمة ملك سليمان بفلسطين وملكة سبأ باليمن - ٦ - إرادته هدايتها إلى الإيمان وظنها أنه يريد استعمار بلادها ونفيه عنه - ١٢ - إيمانها به وبقاء ملك سبأ لأهله .
١٣	القرآن والحكم الاستعمارى فى بلاد العرب
	- ١٣ - إنكار أن يذكر القرآن غلبة الفرس للروم ووعده بنصر الروم على الفرس ولا يذكر تغلبهما على بلاد العرب للتنبيه على خطره - ٢٠ - وقوع معظم بلاد العرب قبيل الإسلام فى قبضة الاستعمار الفارسى والرومى وغفلة العرب عنه - ٣٥ صيحة القرآن فيهم بخطره لجمع كلمتهم على الإسلام وإنقاذهم منه به وغفلة المفسرين عنها .
٤٦	القرآن والحكم الاستعمارى فى بنى إسرائيل .
	- ٤٦ - مظالم الاستعمار الفرعونى فى بنى إسرائيل وإنقاذهم منه ببعث موسى إليه - ٤٧ - صلاح حالهم إلى حكم داود وسليمان

ص الموضوع

وانقسامهم بعده وتسليط طغاة الاستعمار عليهم - ٤٨ - اضطراب المفسرين فى بيان مرتى إفسادهم وبيانهما من التاريخ الصحيح لبنى إسرائيل .

٥٥ الهجرة إلى المدينة والحكم الاستعمارى

٥٥ - مكافحة المسلمين بمكة لحكم الأجنبى فيهم وهجرتهم منه إلى الحبشة - ٥٦ - حصولهم فى الحبشة على الحرية الدينية دون السياسة وأثره فى عدم هجرته ، ص ، معهم إليها - ٥٨ - هجرته إلى المدينة بعد إسلام أهلها ووصول الإسلام بها إلى الحرية الدينية والسياسية وأثره فى التأريخ بها - ٦٠ - عصيان من بقى فى مكة مع القدرة على الهجرة لرضاه بالحكم الأجنبى وقطع الصلة السياسية بينهم وبين المهاجرين مع بقائهم مسلمين .

٦٦ تنزيه الإسلام عن مطامع الحكم الاستعمارى

- ٦٦ - هل يبغض الإسلام الحكم الاستعمارى من غير أهله ولا يبغضه من أهله - ٦٧ - نفى شهوة الحكم عن الاسلام ورفضه (ص) له من قريش حين عرضوه عليه - ٧٠ - معاهدته لأهل المدينة لحماية الدعوة لا للحكم - ٧١ كتابه للفرس والروم وغيرهم لتبليغ الدعوة لا للحكم .

٧٣ تسوية الإسلام بين المسلمين ومواطنيهم

- ٧٣ - وجوب التخلص من التزمت الدينى - ٧٤ - شمول عدل

الموضوع

الإسلام وإنصافه لجميع الأجناس والأديان - ٧٥ - الرد على الأستاذ المودودى فى التفرقة بين المسلمين وغيرهم فى مجالس الشورى وما إليها .

٨٠ حروب الإسلام تحريرية لا استعمارية

- ٨٠ - محاربة المسلمين لقريش من أجل تحرير مستضعفى المسلمين بها ، وكذلك حربهم لغيرهم من العرب - ٨٢ - محاربتهم لليهود لتحرير العرب من استعمار رأس المال اليهودى بعد مناوأته لهوضهم بالإسلام - ٨٦ - إيثار الغاية الدينية على الغاية السياسية فى تبليغ الدعوة للفرس والروم - ٨٨ تخليص اليمن من حكم الأكاسرة ٨تأمير باذان الفارسى عليه بعد إسلامه وإسلام أصحابه من الفرس وإخلاصهم فى حركة الردة - ٨٩ - أثر الرجعية والاستعمار فى هذه الحركة ومحاربة أبى بكر لأهلها حربا تحريرية - ٩٠ تحرير العراق وبلاد الفرس من استعباد الأكاسرة - ٩١ - تحرير الشام ومصر وبلاد المغرب من استعباد الروم - ٩٢ - الحروب المسماة بالصليبية استعمارية لا صليبية .

٩٤ بين السياسة والدين فى معاملة عمر لبعض الذميين .

- ٩٤ - معاملة الذميين فى عهد النبوة بالتسوية بينهم وبين المسلمين هى الأساس - ٩٦ - إجلاء عمر لهم من بلاد العرب لأسباب سياسية مؤقتة - ١٠٠ - من أمر عمر بجز نواصيهم ونحوه كانوا أهل ذمة فى دار حرب وقضى الاحتياط فى أمرهم بهذا معهم - ١٠٢ - أحاديث

ص الموضوع

لا يعمل بها فى أهل الذمة وإن أخذ أكثر الفقهاء بها - ١٠٤ - اتخاذه (ص) لخادم يهودى وغفله الفقهاء عما فيه من توجيهات كريمة .

١٠٨ القرآن ومعاملة غير المسلمين .

- ١٠٨ - خلط الفقهاء فى معاملة المسلمين بين المسالمين وغير المسالمين

- ١٠٩ - بيان أقسام غير المسلمين والآية المحكمة فى معاملتهم

- ١١١ - وجوب حمل غير المحكم من الآيات فى معاملتهم على المحكم فيها .

١١٤ سبق الإسلام إلى الدعوة لوحدة عالمية .

- ١١٤ دعوة الإسلام إلى وحدة عالمية تتساوى فيها الشعوب كلها ويبطل حكم الاستعمار - ١١٥ - بيان أن هذا التوجيه لا يكون إلا منه تعالى - نص القرآن فى هذه الدعوة - ١١٧ - نص الحديث فيها .

١٢١ مسئولية أرسطو فى الاستعمار الأوربى .

- ١٢١ - موازنة بين السياسة الإسلامية وسياسة أرسطو

- ١٢٣ - أرسطو يضع الشعوب الأوربية فوق باقى الشعوب .

تصحيحات

ص	س	صواب
٢٢	٩	ذى يزن
٢٦	١٧	ولكنه كان
٣٠	٢	فأخبر
٣٢	٦	ولمادك
٤٥	٧	بعد
٤٨	٧	هنا
٦١	١١	فتهاجروا
٦١	١٨	يعفو
٦٦	١٤	لشهوة
٦٩	٩	لم يكن
٧٠	١٢	بمعاهدته
٧١	٥	بخص
٧١	١٦	جواب كتاب النبي
٧٩	٥	تلك الحركة
١١٩	١٥	حلفاؤهم
١٢٠	٤	لنبى